مَصَادِرُ المـَعْرِفَـةِ وحُدودُ المنهجِ التَّجريـبيّ في الإسْلامِ

د. عثمان جمعة ضميرية

أستاذ مشارك بكلية الشريعة والدراسات الإسلامية بجامعة الشارقة
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

الخلاصة

مصادر المعرفة هي الوسائل التي نستخدمها للتعرف على الموجودات من حولنا، أو على العالم و الكون الذي جعله الله تعالى موضوعًا للتأمل و التدبُّر والنظر العقلي.و هذه المصادر هي: الوحي أو النص، والعقل، والحواس. وقد جعل الله تعالى هذا الكون قسمين اثنين هما: عالَم الغيب و عالَم الشهادة. وبما أنَّ طبيعة عالم الغيب تختلف عن طبيعة عالم الشهادة فإن الطرق لمعرفة كل منهما تتفق مع طبيعة موضوع المعرفة الذي هو عالم الغيب والشهادة. ولكلٍّ منها مجاله، وإن كان الوحي هو الذي يحكم عليها كلها ويعطي حكماً قاطعاً في كل ما يحكم عليه.وحتى المنهج العلمي التجريبي والاعتماد على الحس ًله مكانته في الفكر الإسلامي.وينتظم هذا البحث بعد المقدمة ثلاثة مباحث وخاتمة. وفيها نتناول مصادر المعرفة وطرق العلم، وخصائص مصادر المعرفة وقيمتها، و حدود العلم والمنهج التجريبي.وفي الخاتمة إيجاز لأهم النتائج والتوصيات

ABSTRACT

Sources of knowledge are the means used to understand the existences around us, or upon the world and universe that Allah Almighty create to observe, reflect, and mental sight. These sources are: Revelation, text, mind, and sense.

Allah Almighty made these universe two parts: Unseen world, and seen world. Since the nature of both are different, then the way to know each one agrees with the nature of knowledge subject which's: The unseen and seen world, and each one has its own field, but the revelation is the ruler in both, and gives decisive rules. Even the experimental scientific method and reliance on the sense has its place in the Islamic thought.

This research contain: Introduction, three subjects, and conclusion, and discuss the sources of knowledge, ways of knowledge, characteristic of sources of knowledge, and its value, limits of knowledge, and experimental methods.

مقدمة

الحمد الذي خلقَ السمواتِ والأرض وجعلَ الظلماتِ والنور، ثم الذين كفروا بربهم يعدِلُون. والصلاةُ والسلام على نبينا محمدٍ معلّم البشرية الخير، وعلى آلهِ وصحبهِ أجمعين، **وبعـد:**

فإن ا - تبارك وتعالى- قضت حكمتُه أن يجعل الإنسان خليفة في هذه الأرض، ليقوم بالتكليف الرباني الذي يحقق غاية الوجود الإنساني بتوحيد ا تعالى وبالعبادة والطاعة التي تتمثل بالانقياد لمنهج ا تعالى ووحيه والالتزام بهديه. قال ا تعالى: **وإذْ قال ربك للملائكةِ إنّي جاعلٌ في الأرض خليفةً. قالوا أتجعلُ فيها من يفسد فيها ويسفِك الدماء ونحن نسبح بحمدِك ونقدس لك. قال إنّي أعلم ما لا تعلمون** [(١)].

وقال ا تعالى: **وما خَلقْتُ الجن والإنس إلا لِيعبدون** [(٢)].

وقال – سبحانه وتعالى-: **هو أنْشأَكُم مِنَ الأرض واستَعمركُم فِيها** [(٣)]

وتأخذ هذه الخلافةُ صورتَها الواقعيةَ في الشعائر التعبدية وفي الشرائع التي تحدد الأحكام للمكلفين في أقوالهم وأفعالهم وسائر تصرفاتهم [(٤)]، كما تتمثل في كل صنوف الإبداع المادي في الأرض، وبذلك كان الإسلام دعوةً لعمارة الأرض وإنشاء الحضارة التي تقوم على الإيمان والعلم والعمل الصالح والأخلاق التي تخفف من الجموح المادي الذي يزاحم القيم الإنسانية العليا في النفس البشرية.

وقد اجتمعت تلك المقومات للحضارة الإسلامية، فتميزت عن سائر الحضارات التي صنعها الإنسان، وتميزت عن سائر المدنيات التي يفاخر بها أهلها، بعد أن قطعت البشريةُ أشواطًا طويلة ومراحل عديدة من الجهد والزمن، حتى وصلت إلى ما وصلت إليه.

ففي الرسالة الخاتمة، كانت الكلمة الأولى التي أُنزلت وحياً على نبينا محمدٍ ﷺ هي كلمة ((اقرأ)): **اقرأْ بِاسمِ ربك الّذِي خَلقَ، خَلقَ الإنْسان مِن علقٍ، اقرأْ وربك الأكْرم، الّذِي علم بِالقَلمِ، علّمِ الإنْسان ما لم يعلم** [(٥)].

ثم تتابعت الآيات القرآنية الكريمة نزولاً، وتواردت معها أحاديث النبي ﷺ، وهي كلها ترسم للمسلمين معالم المنهج الذي يسيرون عليه: عقيدةً، وعبادة، وسلوكاً،

وأصولَ نظرٍ واستدلال؛ فكان لذلك كله أثره البالغ في تهيئة المناخ لنشوء المنهج العلمي الذي يقوم على التثبت والدقة في الرواية والنقل، بالنسبة للمرويات والأخبار، وعلى الحجة والدليل الواضح الصحيح في العقليات، وعلى التجربة والبرهان والنظر في الحسيات.

وبذلك كان الإسلام دين العلم والفكر والنظر، في جميع نواحي دعوة الإسلام، وقد جعل من هذا الإنسان الفريد، ومن هذا الكون العجيب والعالَم الفسيح: مادةً للبحث والتأمل[٦]، وأقام ذلك على أسس علمية يضبطها الوحي ليمنعها من التأرجح والاضطراب، ويباعد بينها وبين الوهم والخرافة والتقليد الأعمى، وبذلك يتناسق ويتوازن مجالُ الوحي ومجالُ العقل الذي منحه الله تعالى لهذا الإنسان الذي خلقه الله على الفطرة، كما جعل الدين نفْسه دِين الفطرةِ. قال الله تعالى: **فطرةَ الله التي فطر الناس عليها لا تبديلَ لِخَلْقِ الله . ذلك الدين القيم، ولكن أكثَر الناس لا يعلمون** [٧].

أهميـة الموضوع:

وتأتي أهمية البحث في المنظومة العلمية في الفكر الإسلامي من أن الإسلام قد أحل العلم مكانة بارزة، ورفع العلماء درجات عالية، نجد هذا في نصوص القرآن الكريم وفي السنة النبوية، ثم في الترجمة العملية لتلك النصوص متمثلة بالجهد والإبداع الإسلامي عبر التاريخ، وفي المنهج العلمي الصارم الذي انتهجه العلماء وسلكوه في بحوثهم بكل أنواعها وصنوفها، حيث حملوا مشعل العلم وأضاؤوا الطريق للبشرية، فكانوا هداةً لها وقادةً، يرتادون الخير، ويدعون إلى الفضيلة، ويرتقون بالإنسانية إلى مدارج الكمال، لأنهم كانوا **خَير أُمةٍ أُخْرِجتْ لِلناس** . **هذه ناحية من نواحي الأهمية.**

ومن ناحية ثانية: يزكي هذه الأهمية أن العلم ونظرياته ومناهجه ومجالاته تلتقي كلها لتكون رافدًا يصب في ينابيع الإيمان الذي فطر الله تعالى الإنسان عليه، وعندئذ يتناسق العلم والإيمان ويتناغمان، فـ ((العلم يدعو إلى الإيمان)) [٨]، والإيمان يجعل من العلم قاعدة له وشاهدًا على صدقه، وبذلك يتفق ((صحيح المنقول مع صريح المعقول))، فلا تعارض بين العقل والنقل [٩]، ثم يرفع الإسلام القواعد من العلم والمنهج العلمي، ويضع له الحدود الفاصلة بين مجال عمله وبين المجال المحجوب عنه، فلا يطغى أحدهما على الآخر.

ومن ناحية ثالثة؛ فإن معظم المباحث التي يومئ إليها هذا البحث ترتبط بأكثر من مجال من مجالات الفكر العلمي الرئيسة.

مجالات الفكر العلمي:

ومجالات الفكر العلمي تشمل جميع الجهود الفكرية التي تدرس العلم والمنهج العلمي في ظل الصورة المركبة لقوة التأثير بين العلم والإنسان والمجتمع، وهي مجالات لا يمكن للعلم أن ينسلخ عنها أو يتحرر منها. وتشمل تلك المجالات مايلي:[(١٠)]

أنطولوجيا العلم: وتعني البحث في كشف طبيعة الوجود اللامادي في القضايا الميتافيزيقية (الغيبية) المترتبة على التصورات أو المفاهيم والقوانين العلمية.

إبستمولوجيا العلم أو نظرية المعرفة: وتَعني البحثَ في إمكانيـة المعرفة ومصادرها وطبيعتها.

أكسيولوجيا العلم: وتعني ما يعرض للبحث في القِيِم والمثُل العليا ومدى ارتباطها بالعلم وخصائص التفكير العلمي، باعتبار المعرفة العلمية واحدةً من أهم فعاليات النشاط الإنساني وَأرقَاها.

سيكولوجية العلم: وتعني مجال البحث في العمليات النفسية والعقلية التي تتعلق بالكشف العلمي وما يقترن بها من القدرات الإبداعية والخيالية الموجهة لحل المشكلات العلمية.

سوسيولوجية العلم: وتعنى بالبحث في مجال التفسير الاجتماعي لتطور النظريات العلمية ومدى تقبل المجتمع لها، بالإشارة إلى أسلوب التنظير العلمي ونمطه الذي يعكس الصبغة السائدة في مجتمع ما. وهنا يأتي دور المعايير الثقافية والقيم السلوكية والعقدية في التأثير على تحديد الاتجاهات العقلية.

تاريخ العلم: وهو الذي يعنَى بوصف حركة العلم وتقويمها، عبر مراحل العلم المتعاقبة، للوقوف على عوامل تقدمِه وازدهاره أو تعثره، من جوانب عدة.

خطـة البحث:

وينتظم هذا البحث بعد هذه المقدمة في ثلاثة مباحث وخاتمة.

المبحث الأول: مصـادر المعـرفة وطرق العـلم.

المبحث الثاني: خصائص مصادر المعرفة وقيمتها.

المبحث الثالث: حدود العلم والمنهج التجريبي.

الخاتمة: وفيها أهم النتائج والتوصيات.

وأسأل الله تعالى بأسمائه الحسنى وصفاته العظمى: أن يهدينا لأقوم طريق، وأن يرينا الحق حقًا ويرزقنا اتّباعه، وأن يرينا الباطل باطلاً ويرزقنا اجتنابه، وأن يوفقنا لصالح القول والعمل، وأن يجعلَ عملنا كله خالصًا صوابًا متقبلاً عنده. والحمد لله رب العالمين.

المبحث الأول: مصادر المعرفة وطرق العلم

تمهيد وبيان:

مصادر المعرفة [11] هي الوسائل التي نستخدمها للتعرف على الموجودات من حولنا، أو على العالم والكون الذي جعله الله تعالى موضوعًا للتأمل والتدبر والنظر العقلي.

وقد جعل الله تعالى هذا الكون قسمين اثنين هما: عالم الغيب وعالم الشهادة.

(١) عالَـم الغَيب: أصل معنى الغيب في اللغة العربية هو استتار الشيء عن العيون. ثم استُعمل في كل ما يغيب عن الحواس، أو ما لا يقع تحت الحواس ولا تقتضيه بدائه العقول، بحيث لا يدرك بواحدٍ منهما ابتداء.

والمراد بـ ((عالَـم الغيب)): هو كل الموجودات التي غابت عن حواسنا، ولا تقتضيه العقول بداهةً، ونتوصل إلى معرفته بالخبر الصادق وبالآثار التي تدل عليه. فهو يقع في مجال غير المرئيات [12].

(٢) عالَـم الشهادة: أصل معنى الشهادة في اللغة العربية يدل على حضور وعلم وإعلام. والشاهد هو الحاضر. والمشاهدة هي الإدراك بإحدى الحواس الظاهرة أو الباطنة. والمشاهدات هي: المحسات، أي الأمور التي نحكم عليها بإحدى الحواس.

والمراد بـ ((عالَـم الشهادة)): هو كل ما هو حاضر مشاهد، نستطيع أن ندركه بحواسنا ونحكم عليه بها. والعلم به عند إدراكه علم ضروري لا يتوقف على استدلال أو نظر عقلي [13].

وبما أن طبيعة عالم الغيب تختلف عن طبيعة عالم الشهادة فإن الطرق لمعرفة كل منهما تتفق مع طبيعة موضوع المعرفة الذي هو عالم الغيب والشهادة.

ونشير فيما يلي إلى مصادر المعرفة بعامة، ثم نتعرف على وسيلةِ معرفةِ كلٍّ من عالمي الغيب والشهادة ومصدرها، وحدودِ هذه المعرفة وضوابطها.

طرق العلم ومصادر المعرفة:

والطرق أو الأسباب التي يتعرف بها الإنسان على الموجودات، ويحكم عليها من خلالها، ويعلمها علماً يقينياً أو ظنياً: إما أن تكون من خارج نفس الإنسان، أو من داخلها.

فإن كانت من خارج النفس: فهي الخبر الصادق؛ وإن كانت من داخل النفس فإن كان العلم بها بواسطة آلة غير المدرك: فهي الحواس، وإلا فالعقل والنظر والاعتبار بحدوده وضوابطه (١٤).

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية [15] رحمه ا : ((طرق العلم ثلاث: أحدها الحس الباطن والظاهر، وهو الذي تعلم به الأشياء الموجودة بأعيانها. والثاني: الاعتبار بالنظر والقياس. والثالث: الخبر)) [١٦].

(الطريق الأول): الحس الباطن والظاهر:

وهو الذي تعلم به الأمور الموجودة بأعيانها. والحس إنما يكون بالحواس، وهي جمع حاسة، بمعنى القوة الحاسة، كحاسة السمع بالنسبة للمسموعات، وحاسة البصر الذي تُدرك به الأضواء والألوان والأشكال والمقادير والحركات والحسن والقبح، وغير ذلك مما يخلق ا تعالى إدراكه في النفس عند استعمال العبد تلك الحاسة. وكذلك حاسة الشم الذي تُدرك به الحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة ونحو ذلك عند التماس...

وبكل حاسة من هذه الحواس يطلع الإنسان على المحسات، ويحكم بها على ما وضعت له تلك الحاسة؛ فلا يدرك بها ما يدرك بالحاسة الأخرى. يعني أن ا تعالى قد خلق كلاً من تلك الحواس لإدراك أشياء مخصوصة كالسمع للأصوات، والذوق للمطعومات، والشم للروائح... ولا يدرك بواحدة من هذه الحواس ما يكون إدراكه خاصاً بالحاسة الأخرى.

وقد دعا ا ُ -سبحانه وتعالى- الإنسان لاستخدام هذه الحواس للتعرف على هذا الكون والتأمل فيه والنظر في عجائب مخلوقاته في النفس والآفاق. فإن الإنسان مسؤول عن هذه الحواس والملكات التي زوده ا تعالى بها، ووهبه إياها لتكون عوناً له على أداء وظيفته الكبرى في هذه الحياة، وهي عمارة الأرض وفق المنهج الإلهي، ولا يجوز له أن يعطل هذه المواهب أو الحواس عن وظيفتها.

قال ا سبحانه وتعالى: **إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولاً** (الإسراء: من الآية٣٦)

فلينظر الإنسان إلى طعامه، أنا صببنا الـماء صباً، ثم شققنا الأرض شقّاً، فأنبتنا فيها حباً وعنباً وقضباً وزيتوناً ونخلاً، وحدائق غلباً، وفاكهةً وأبـاً، متاعاً لكم ولأنعامكم (عبس: ٢٤ـ ٣٢).

ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون (الأنفال: ٢١)

والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون (النحل: ٧٨)

قل هو الذي أنشأكم وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلاً ما تشكرون (الملك: ٢٣).. إلخ.

وما أعظم خسارة أولئك الذين امتن ا تعالى عليهم فوهبهم هذه الحواس والقدرات ولكنهم لم يفيدوا منها، ولم يحققوا الغاية التي منحت هذه الحواس لتحقيقها: **أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم** (محمد: ٢٣)

ولذلك ينبغي أن يحذر المؤمنون – أشد الحذر- ذلك الإلغاء أو التعليقَ لحواسهم وعملها، قال ا تعالى: **ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون إن شر الدواب عند ا الصم البكم الذين لا يعقلون** (لأنفال: ٢١و٢٢).

فالحواس بأنواعها-ضمن شروط معينة- هي المنافذ التي ينظر العقل من خلالها، فهي طريقه للتصور والحكم على الأشياء.

إلا أن هذه الحواس في حكمها على الأشياء لا تعطي حكماً مطلقاً قاطعاً لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ولا تستطيع أن تحيط علماً بكل الأشياء أو بحقائقها

وكنُهها، وإنما هي وسيلة-بمفردها- غير كافية للحكم على الأشياء كلها، بل هي محدودة في حدود مظاهر وخصائص الأشياء في عالم الشهادة، وهي نافذة ووسيلة قد يكتنفها الخطأ والخداع، فإن الحواس محدودة القدرة، قصيرة المدى؛ فالإدراك الحسي مثلاً لا يختلف من شخص لآخر فحسب، بل إنه يختلف عند الشخص نفسه من حال إلى حال. وأخطاء البصر ليست أقل شيوعًا من أخطاء السمع وأخطاء باقي الحواس. مما جعل بعض من كتب عن المنهج العلمي في البحث عن الحقيقة يقول: ((شاهدت بعض الأحايين أن هذه الحواس تخدعنا ومن الحزم ألا نثق البتة تمام الثقة في الذي يخدعنا مرة واحدة)) (١٧).

ولهذا لما جعل الماديون من الغربيين وغيرهم الحواس وحدها مصدراً للمعرفة في العصور الأخيرة كان التخبط والاضطراب الذي نشاهده عندهم، ويعيشونه في واقع حياتهم، ثم اقترابهم من الهاوية وإشرافهم عليها.

ووقع هذا الخلل الذي أشرنا إليه من جانبين:

١. الاعتماد على الحواس فقط فيما يسمى بالمنهج العلمي التجريبي، وهو قاصر لأنه ليس هو المصدر الوحيد للمعرفة، كما أن له حدوداً معينة، سنشير إليها فيما يأتي -إن شاء ا تعالى-.

٢. قصور الحواس نفسها عن إعطاء فكرة جليـة واضحة متكاملة عن الأشياء كلها وعن الكون والحياة والإنسان.

ولا يعني هذا أن نُسقِط قيمة الحواس من مصادر العلم والمعرفة؛ فإن في ذلك مكابرة للعقل والبديهة والواقع، وإنما ينبغي أن نضعها في مكانها المناسب لها بحدودها وضوابطها دون أن نهملها ولا أن نعتمد عليها اعتماداً كلياً ونُسقطَ ما عداها أو نُدخِل الضيم عليه ونقلل من شأنه في مجاله.

(الطريق الثاني): وهو العقل والاعتبار بالنظر والقياس (١٨).

وإنما يحصل العلم به بعد العلم بالحس، فما أفاده الحس معيناً يفيده العقل والقياس كلياً مطلقاً.

فهو لا يفيد بنفسه علم شيءٍ معين، ولكنه يجعل الخاص عاماً والمعين مطلقاً؛ فإن الكليات إنما تُعلم بالعقل كما أن المعينات إنما تُعلم بالإحساس (١٩).

قيمة العقل في الإسلام:

ينوه الإسلام تنويهاً كبيراً بالعقل، ويعلي من مكانته وقيمته، ويحفل به وبوسائل الإدراك - بعامة - ونجد شاهداً على ذلك في الآيات القرآنية الكريمة التي تنزلت بشأنه. وينبئك عن هذا أن مشتقات كلمة «العقل» وحدها تكررت في القرآن الكريم حوالي سبعين مرة.

وأما الآيات التي تتصل بالعمليات العقلية وتحث على النظر والتفكر والتدبر والتبصر في آيات ا في الأنفس والآفاق، وفي حوادث التاريخ، وأحكام التشريع، وتتوجه بالخطاب لأولي الألباب... فقد بلغت من الكثرة حداً أعطى الإسلام ميزة بين كل المذاهب والشرائع.

فإذا تلمسنا الشواهد على ذلك في أحاديث النبي، ﷺ، التي تحث على العلم وتبين فضله ومكانته، وترسم منهج البحث والنظر، وتدعو للتبصر والفهم والفقه... وجدناها تأخذ مساحة أوسع، في كتب الحديث النبوي الشريف، وتجعل الإسلام - بحق- ديـن العلـم والعقـل، كمـا أنه ديـن الفطـرة التي فطـر ا تعالى الناس عليها.

مكانة العقل في الإسلام:

ونوجز فيما يلي الكلام على مكانة العقل في الإسلام، بخطوط سريعة وكلمات موجزة تشير إلى ما وراءها من اهتمام وعناية:

١- فالعقل هو هبة ا العظمى ومِنْحتُه الكبرى لهذا الإنسان، به أكرمه وميزه على سائر المخلوقات، فأعطاه المفتاح الذي يفتح به أبواب الملكوت ويدخل ساحة الإيمان با الذي سخر للإنسان كل ما في السموات وما في الأرض. ولذلك امتن ا تعالى على الناس بهذا العقل، وجعله موضوع المسؤولية، فقال: **قُلْ هو الذِي أَنشأَكُم وجعلَ لَكُم السمع والأَبصار والأَفْئِدةَ قَلِيلاً ما تَشكُرون** (الملك: ٢٣).
وقال أيضًا: **إن السمع والْبصر والْفُؤَاد كُلُّ أُولئِك كَان عنْه مسؤُولاً** (الإسراء: ٣٦)

٢- ولذلك جعل ا تعالى العقل مناط التكليف وسبباً له، فالخطاب الشرعي لا يتوجه إلا للعاقل، لأن العقـل أداة الفهم والإدراك، وبه تتوجـه الإرادة إلى الامتثال. ولذلك قال بعض السلف: «العقل حجة ا على جميع الخلق».

ومن هنا جاءت أحاديث النبي ﷺ برفع القلم ـ أي التكليف والمؤاخذة ـ عمن فقدوا مناط التكليف، وهو العقل، بسبب الجنون أو ما يأخذ حكمه [٢٠]، فقال ﷺ: «رفع القلم عن ثلاثة: عن المجنون المغلوب على عقله حتى يبرأ، وعن النائم حتى يستيقظ، وعن الصبي حتى يحتلم» [٢١].

٣ - ولذلك شرع الإسلام من الأحكام ما يحافظ فيها على العقل باعتباره واحداً من الضروريات الخمس، التي أُنزلت الشرائع للمحافظة عليها، وهي: الدين، والنفس، والعرض، والعقل، والمال [٢٢].

فأوجب الإسلام العلم، وكل ما به قوام الحياة، وهي تعود على العقل بالحفظ، وحرم كل ما يذهب العقل أو يزيله؛ كالخمر والمخدرات وسائر المسكرات؛ ولأنها تصيب العقل بآفة تجعل صاحبه عبئاً على المجتمع ومصدر شر وأذى للناس.

٤ - ويحث الإسلام العقل على العمل فيما خُلِق له، وفي المجال الذي يستطيعه، فلا يجوز إهماله ولا تعطيله؛ فهو يحث على النظر والتدبر والتأمل والتفكر في آيات الله تعالى المقروءة، والمنظورة، في الأنفس والآفاق، وفي مجال عالم الشهادة. والآيات الكريمة في ذلك كثيرة تعز على الحصر.

٥ - ويرسم الإسلام للعقل المنهج الصحيح للعمل والتفكر، ويرفع من أمامه العوائق والموانع التي تعطله عن وظيفته؛ كاتباع الظن والأوهام والخرافة، أو الخضوع لسيطرة العادات والتقاليد، أو تقليد الآباء والمشايخ والطغاة.. وبذلك يتحرر العقل حرية حقيقية كاملة، ويقوم بعملية التثبت والتبـين قبل الإقدام أو الاعتقاد والتصديق:

وإذَا قِيلَ لـَهـُم اتبِعوا ما أَنزلَ الله قَالُوا بلْ نَتبِع ما أَلْفَينَا علَيهِ آباءنَا أَو لَو كَان آباؤُهم لا يعقِلُون شَيئًا ولا يهتَدون (البقرة: ١٧٠).

ولا تَقْفُ ما لَيس لَك بِهِ عِلْم إن السمع والْبصر والْفُؤَاد كُل أُولَئِك كَان عنْه مسؤُولاً (الإسراء: ٣٦).

٦ - ثم يحيل الإسلام على العقل ـ مع أدلة أخرى ـ في القضايا الكبرى الرئيسية؛ فهو يهدي ـ عند النظر الصحيح ـ إلى معرفة الله تعالى ووحدانيته، ويقيم الأدلة على صحة النبوة والبعث بعد الموت، فيكون إدراك هذه القضايا إدراكاً كلياً عاماً وقبولها بالعقل [٢٣].

وشواهد ذلك من القرآن والسنة وكلام العلماء كثيرة، لا يتسع المقام للإفاضة فيها. فحسبنا هذه الإشارة نختم بها هذه الفقرة عن قيمة العقل ومكانته في الإسلام [٢٤].

وما أكثر الآيات القرآنية الكريمة التي يحثنا الله تعالى فيها على استعمال العقل!

فهو المفتاح الذي منحه الله تعالى لبني آدم ليفتحوا به أبواب الملكوت ويدخلوا ساحة الإيمان بالله الذي سخر للإنسان كل ما في السموات والأرض.

كما حثت الآيات القرآنية الكريمة على التفكير العميق المتبصر المسؤول بكل ما يحيط بالإنسان من علامات وأشياء وموجودات. وأكدت على الأسلوب الذي يعتمد البرهان والحجة والجدال الحسن للوصول إلى النتائج الصحيحة القائمة على الاستقراء والموازنة والتمحيص استناداً إلى المعطيات الخارجية المتفق عليها والقدرات العقلية والمنطقية لأولئك الذين بلغوا شأواً بعيداً في هذا المضمار [٢٥]:

كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تعقلون (البقرة: ٢٤٢).

وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون (الحشر: من الآية٢١).

أإله مع الله قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين (النمل: من الآية٦٤).

ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير (الحج: ٨).

والإسلام يقدر العقل باعتباره نعمة من أكبر النعم التي أنعم الله تعالى بها على الإنسان: **والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون** (النحل: ٧٨)

المجالات التي لا مجال للعقل فيها:

ولكن الإسلام لا يبالغ في تقدير قيمة العقل كما كانت تفعل العقلانية الإغريقية ومن ورثها من بعد من الأمم الأوربية الحديثة والجاهلية المعاصرة؛ إذ ليس العقل هو الحكم المعصوم الذي لا يخطئ، ولا هو المرجع الأخير لكل شيء، رغم أنه أداة ضرورية لفهم النصوص الشرعية.

فهناك أمور لا يستطيع العقل من ذات نفسه أن يصل إليها لأنها لا تقع في محيط تجربته وعمله، ولا تستطيع الأدوات التي يحصل بها المعرفة -وهي أدوات الحس- أن تصل إليها لأنها خارجة عن نطاق الحس، وإن كان في إمكان العقل أن ((يعقلها)) حين تبين له، فهذه تلقن للعقل تلقيناً عن طريق الوحي، ويكون دور العقل أن يعقلها، لا بطريق التجربة المباشرة ولا بطريق الحس، ولكن عن طريق التيقن من صدق

الخبر وصدق المخبر، وهو مدعو إلى القيام بعملية التيقن هذه بكل الوسائل التي يملكها... وهي مؤدية إلى الغاية الصحيحة حين يستقيم العقل على الطريق [٢٦].

وإذا تجاوزنا الأمور والجوانب التي لم يزود الله -سبحانه وتعالى- الإنسان بالقدرة على الإحاطة بها ـ بماهيتها أو بكيفيتها، وإن كان موهوباً أن يدرك إمكانها ـ لأنها لا تدخل في حدود طبيعته البشرية المحدودة، أو لأنها لا تلزم له في النهوض بوظيفته المحددة له في هذه الأرض، وهي وظيفة الخلافة، ومن ذلك:

كل ما يتصل بعالم الغيب، ومن ذلك مسألة كُنْه الذات الإلهية والروح وعلم الساعة (القيامة)، وغيرها مما يتصل بعالم الغيب المطلق المحجوب عن الإنسان، والتفكر في القدر، أو وضع التشريعات والأحكام من دون الله تعالى...

إذا تجاوزنا هذه الأمور والجوانب، فكل المجالات الأخرى مباحة للعقل ومتاحة له، بل هو ـ في الإسلام ـ مدعو إلى التفكر والتأمل فيها دعوة صريحة، ويعتبر الإنسان مقصراً إذا لم يقم بها.

مجالات عمل العقل البشري:

وهناك خمسة مجالات رئيسية يدعى العقل للتعرف عليها والعمل فيها في ظل الإسلام:

أولاً: تدبر آيات الله في الكون للتعرف على قدرة الله المعجزة وتفرده بالخلق والتدبير والهيمنة والسلطان، بما يؤدي إلى إخلاص العبادة لله -سبحانه وتعالى- وحده وطاعته فيما أمر به ونهى عنه.

ثانياً: تدبر آيات الله في الكون للتعرف على السنن الكونية التي يجري بها قدر الله، لتحقيق التسخير الرباني لما في السموات وما في الأرض للإنسان من أجل تعمير الأرض والقيام بالخلافة فيها.

ثالثاً: تدبر حكمة التشريع الرباني لإحسان تطبيقه على الوجه الأكمل، والاجتهاد فيما أذن الله تعالى فيه للعباد بالاجتهاد.

رابعاً: تدبر السنن الربانية التي تجري الأمور بمقتضاها في حياة البشر لإقامة المجتمع الإيماني الراشد الذي يريده الله تعالى.

خامساً: تدبر التاريخ وأحداثه وأيام الله لأخذ العبرة واستقامة السلوك الإنساني [٢٧].

(الطريق الثالث): الخبر الصادق، أو خبر الصادق، وهو على نوعين:

(النوع الأول): الخبر المتواتر، الثابت على ألسنة قومٍ لا يتصور اتفاقُهم على الكذب. وهو يفيد العلم القطعي من غير شبهة. وهو -بالضرورة والبداهة العقلية- يوجب العلم الضروري دون توقف على استدلال [(٢٨)].

وإننا لو رجعنا إلى أنفسنا نجد أن لنا عِلماً بوجود أشياء كثيرة، كالأشخاص والأشياء في الأزمنة الخالية والبلدان النائية... وطريقُ علمنا بها هو هذا الخبر المتواتر بوجود أولئك الأشخاص وتلك الأشياء.

و(النوع الثاني) من الخبر: هو خبر الرسول ﷺ فيما ثبت عنه، وهذا يوجب العلم الاستدلالي الحاصل بالنظر في الدليل.

والعلم الثابت بهذا الطريق يضاهي العلم الثابت بالضرورة كالمحسات اليقينية القطعية والمتواترات والبديهيات، يضاهيها في التيقن والثبات. وخبر الرسول ﷺ يفيد العلم اليقيني بما أخبر عنه بالنظر إلى نفسه وما ثبت في نفسه، دون حاجة إلى أدلة خارجية [(٢٩)].

وبعد هذا العرض لمصادر المعرفة وطرق العلم بعالم الغيب والشهادة، ندرك خطأ الذين يعتمدون على مصدر واحد فقط من مصادر العلم والمعرفة، كالذين يعتمدون على الحواس فقط للتصديق بصحة الأشياء أو الحكم عليها.

وندرك أيضاً خطأ الذين يسقِطون هذه الحواس من حسابهم.

كما ندرك خطأ الذين يحاولون هدم دور العقل بإطلاق، كالصوفية الذين يعتمدون على الذوق وعلى المواجيد الخاصة عندهم.

ولا يقل عن أولئك، في الخطأ، الذين يغالون في تقدير قيمة العقل وإعلائه حتى إنهم ليجعلونه حاكماً على نصوص الشرع، فترى أحدهم يرفض بعقله القاصر المحدود حكماً شرعياً ثابتاً بحجة أن عقله لم يقتنع بذلك...

والخلاصة: إن الحواس والذوق الخاص والمقررات العقلية البحتة والرؤى والمنامات كلها ليست من مصادر المعرفة على إطلاقها، أما الذوق والرؤى أو المنامات فهي ليست أيضاً مستنداً لأحكام شرعية في الإسلام، بالنسبة لنا معشر البشر. أما رؤى الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- فهي نوع من الوحي الذي يفيد العلم اليقيني القطعي.

المبحث الثاني: خصائص مصادر المعرفة وقيمتها

تمهيـد:

لاحظنا أن مصادر المعرفة وطرق العلم بالنسبة لعالمي الغيب والشهادة في الفكر الإسلامي تنوعت إلى طرق ثلاث، ولكل منها مجال للعمل والحكم، كما أن لكل منها خصائص من حيث الشمول واليقين.

فالخبر الصادق يتناول الكليات والمعينات، والشاهد والغائب، فهو أعم وأشمل من الطريقين السابقين: الحس والنظر أو العقل. لكن الحس والعيان أتم وأكمل، وفي الحواس نفسها قد تختلف الأنظار.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه ا - [٣٠]: وقد تنازع الناس في السمع والبصر أيهما أكمل؟

والتحقيق في هذا الباب: أن العيان أتم وأكمل، والسماع أعم وأشمل. فيمكن أن يعلم بالسماع والخبر أضعاف ما يمكن عِلْمه بالعيان والبصر أضعافاً مضاعفة. ولهذا كان الغيب كله إنما يعلم بالسماع والخبر، ثم يصير المغيب شهادة، والمخبر عنه معايناً، وعلم اليقين حق اليقين.

والمقصود هنا: أن الخبر أيضاً لا يفيد إلا مع الحس أو العقل، فإن المخبر عنه إن كان قد شوهد كان قد علم بالحس، وإن لم يكن شوهد فلا بد أن يكون قد شوهد ما يشبهه من بعض الوجوه، وإلا لم يعلم بالخبر شيء. فلا يفيد الخبر إلا بعد الحس والعقل، فكما أن العقل بعد الحس، فالخبر بعد العقل والحس، فالإخبار يتضمن هذا وهذا. وكما أنه ليس كل ما علم بالقياس والعقل والاعتبار يمكن الإحساس بواحدٍ واحد من أعيانه، فكذلك ليس كل ما علم بالخبر والسماع يمكن اعتباره بالقياس؛ إما لعدم النظير له من كل وجه، وإما لغير ذلك.

ثم إذا كان الخبر صادقاً لا كذب فيه أُمِن معه من الانتقاض والفساد، بخلاف القياس، فإن كثيراً مما يبنَى فيه على قضايا كلية تكون منتقضة، وإن كان فيه ما ليس منتقضاً.

فليس كل شيء يمكن علمه بالقياس، ولا كل شيء يحتاج فيه إلى القياس، ولهذا قال الأئمة: ليس في المنصوصات النبوية قياس، ولا تُعارض بالأمثال، ولا تُدرك بالعقول.

فأما كونها لا تعارض بالأمثال المضروبة، فهذا يعني: أن المنصوص الصريح لا يعارضه دليل عقلي صحيح، وأما أنها لا تدرك بالعقول: فإن نفس الغريزة العقلية التي تكون للشخص قد تعجز عن إدراك كثير من الأمور، لا سيما الغائبات، فمن رام بعقل نفسه أن يدرك كل شيء كان جاهلاً، لاسيما إذا طعن في الطرق السمعية النبوية الخبرية[(٣١)].

وسيلة التعرف على عالمي الغيب والشهادة:

وإذا كنا نتعرف على عالم الشهادة بتلك الطرق الثلاث السالفة، لأن الله سبحانه وتعالى قد زودنا بهذه الأدوات التي نستخدمها للتعرف عليه، فإن عالم الغيب لا نستطيع التعرف عليه بحواسنا هذه، لأنه، حال كونه غيباً، لا يقع تحت الحواس ولا يخضع للتجربة المادية، وإنما نستدل عليه بالخبر اليقيني الصادق الذي جاءنا عن طريق الوحي، إذ الفطرة السليمة المؤمنة تتلقى معرفة ذلك بالتسليم، كما نستدل على وجوده أيضاً بالآثار التي تدل عليه، إذ الأثر يدل على المؤثر [(٣٢)].

وإذن فكل طريقة من تلك الطرق السابقة يمكنها أن تفتح لنا نافذة لمعرفة جانب من جوانب العالم، وكل وسيلة تكمل الأخرى، وتؤكدها، إن تواردتا معاً على جانب معين، وليس هناك أي مسوغ لجحد طريقة من أجل العناية بأخرى، أو نشوب صراع بينهما، كما حدث في الفكر الجاهلي الغربي.

الصراع بين العقل والدين والحس في الفكر الأوروبي:

عندما يفتقد الإنسان الميزان أو المعيار الدقيق السليم؛ فإنه يضرب في بيداء التيه والتخبط والتمزق النفسي، وهذا ما نراه واقعًا في قضية الصراع بين مصادر المعرفة في الفكر الأوربي. يقول الدكتور محمد البهي، رحمه الله:

((مضت على التفكير الأوروبي- منذ القرن الرابع عشر إلى الآن- مراحل شهدت فيها العقلية الأوروبية صراعاً فكرياً، واتجاهات عقلية مختلفة تدور حول ((تبرير)) مصدر من مصادر المعرفة التي عرفتها البشرية في تاريخها حتى الوقت الحاضر وهي: الدين والعقلُ والحس أو الواقع.

وفي كل مرحلة من هذه المراحل ينشأ سؤال عن قيمة أي واحدٍ من هذه الثلاثة كمصدر للمعرفة المؤكدة أو اليقينية؟ ثم يكون الجواب على هذا السؤال إيجاباً أو سلباً. ومن السؤال وما يدور حوله من جدل وأخذٍ ورد تتكون المذاهب الفلسفية التي تعبـر عن قيمة المصدر الذي وضع للاختبار والتقدير)) [(٣٣)].

وبانتهاء القرن الثامن عشر وظهور فجر القرن التاسع عشر الميلادي تميز الفكر الأوروبي بالاتجاه نحو التفكير الوضعي وسيادة الطبيعة على الدين والعقل معاً، فكانت الوضعية، كنظرية فلسفية في دائرة المعرفة، هي المذهب السائد في الفكر الأوروبي، لمعارضة الكنيسة الكاثوليكية في أوروبا ومعارفها الدينية، فما لا يقع تحت الحواس، ينبغي ـ بنظرهم ـ أن يكون خارجاً عن دائرة الإيمان، لأنه غير قابل للتفسير، ولا يخضع للتجربة الحسية، إذْ يرى المذهب التجريبي الذي عرف به الفيلسوف الاسكتلندي هيوم [٣٤] والذي نشأت عنه الفلسفة الوضعية = أن تحصيل الإنسان للحقائق الكونية ومعرفته بها لا يكون إلا بالتجربة الحسية وحدها.

ومعنى ذلك: أن الحس المشاهد ـ لا غيره ـ هو مصدر المعرفة الحقيقية اليقينية؛ ففي العالم الحسي تكمن حقائق الأشياء. أما انتزاع المعرفة مما وراء الظواهر الطبيعية الحسية، والبحث عن العلة في هذا المجال، فأمر يجب أن يرفض، ولهذا تكون كل نظرية، أو كل فكرة عن وجودٍ له طابع الحقيقة واليقين ـ فيما وراء الحس ـ نظرية أو فكرة مستحيلة [٣٥].

ولذلك يرى ((أوغست كونت)) [٣٦] أن تعاليم الأديان يمكن تلخيصها في معتقدين: ا والخلود. ثم يستخلص فكرة واحدة شاملة هي الإنسانية. فالإنسانية هي الفكرة الوضعية المتطورة لفكرتي: ا والخلود.

ويعتقد كونت أن الإنسانية إذا فُهمتْ على هذا النحو فإنها تكون هي نفسها الإله الذي ينشده الناس.

وبذلك يصل ((كونت)) إلى هدفه المراد: وهو إلغاء العقائد الدينية الغيبية وكل ما يتصل بها من أخلاق ونظم اجتماعية، واعتبارها أفكاراً وأوهاماً غير واقعية وغير نافعة، وإنما تعبر عن الصورة غير المكتملة للإنسانية في مرحلةٍ دنيا من مراحل تطورها [٣٧].

ويذهب ((ماكس مولر)) [٣٨]، أيضاً، إلى أنه لا شيء يتحقق في عقيدة الإنسان ما لم يكن قد أتى من قبل عن طريق حواسه [٣٩].

وإذن فقد سجن الإنسان ـ الأوروبي ـ نفسه بطريقة تحكمية في حدود حواسه الخمس منذ عهد النهضة [٤٠].

التوازن بين مصادر المعرفة في الإسلام:

ولئن تأرجح الفكر الغربي في نظرته لمصادر المعرفة وتغليب واحد منها على الآخر، إلى درجة إنكاره أو إنكار قيمته العلمية ـ كما رأينا ـ... إن الإسلام ـ وهو دين ا تعالى للبشرية الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ـ قد رسم للإنسان منهجاً متكاملاً متوازناً في المعرفة ومصدرها، يخاطب فيه جميع مكوناته، ويستثير كل منافذ الحس والفكر والروح، لتتعانق كلها وتأخذ بيده، فتضعه على الجادة من طريق المعرفة واليقين.

فالإسلام لم يهمل أو يغفل مصدراً واحداً من مصادر المعرفة كما أنه لم يبرز دوره على حساب سائر المصادر الأخرى ليلغيها أو يلغي واحداً منها وإن كان يعطي كلاً حقه ويحدد له المجال الذي يعمل فيه.

((والنظرية الإسلامية تؤمن بإمكان المعرفة وبصحة استخدام وسائلها في المجالات المشروعة لها وبالتالي بإمكانية اليقين)) (٤١).

وفي كيان الإنسان طاقتان فطريتان: الإيمان بما تدركه الحواس، والإيمان بما لا تدركه الحواس وكلتاهما طاقة إنسانية أصلية فالحيوان لا يؤمن بشيء من الأشياء ومع ذلك فالإيمان بما تدركه الحواس ليس هو مزية الإنسان والحيوان، أما القدرة على الإيمان بما لا تدركه الحواس فهو المزية الأساسية للكائن البشري والموهبة العظمى التي وهبها ا تعالى للإنسان (٤٢).

فإذا كانت الحواس منافذ يتعرف الإنسان بواسطتها على العالم المحس من حوله بالتجربة لكل ما يخضع للتجربة المادية فإن العقل له دوره في الحكم على كل ما يستطيع أن يحكم عليه بحدود طاقته وبحكم محدوديته في الزمان والمكان والكيفية.

أما ما وراء ذلك من عالم الغيب ومما لا يقع تحت الحواس ويعجز العقل البشري رغم مكانته وقدرته ـ عن تفسيره والوصول إلى حقيقته فإن الوحي هو الذي يحيط علماً بكل هذا. ولذلك يقوم الإسلام والإيمان على أساس التصديق بالنبوة والوحي وبهذا يستطيع من يهتدي بالعقل أن يفسر هذا الوجود تفسيراً صحيحاً وأن يصحح نظرته للكون والحياة والإنسان (٤٣).

ولذلك لم يهمل الفكر الإسلامي قيمةَ واحدٍ من مصادر المعرفة وطرق العلم؛ فهو يؤكد عليها كلها مجتمعة، ولكلٍ منها مجاله، وإن كان الوحي هو الذي يحكم عليها كلها ويعطي حكماً قاطعاً في كل ما يحكم عليه.

وحتى المنهج العلمي التجريبي والاعتماد على الحس له مكانته في الفكر الإسلامي. وفي كتاب ((التقريب في حدود المنطق)) يؤكد ابن حزم [٤٤] أن الحس أصل من أصول العلم. وابن تيمية يبين في كتابه المسمى ((نقض المنطق)) أن الاستقراء هو الطريقة الوحيدة الموصلة إلى اليقين. وهكذا قام المنهج التجريبي القائل بأن الملاحظة والتجربة هما أساس العلم وأصله لا التفكير النظري المجرد [٤٥].

فالزعم بأن أوروبا هي التي استحدثت المنهج التجريبي زعم خاطئ وقد اعترف بهذه الحقيقة أساطين العلماء والمؤرخين للحركة العلمية والمنهج العلمي.

ويقرر ((بريفولت)) في كتابه ((بناء الإنسانية)) أن المنهج التجريبي في البحث العلمي –الذي قامت على أساسه الحركة العلمية المعاصرة- لم يكن له أية جذور في أوربا، وأن المسلمين هم الذين أنشؤوه، ومنهم تعلمته أوربا. فيقول: ((لقد العلم أهم ما جادت به الحضارة العربية (يقصد الإسلامية) على العالم الحديث، ولكن ثماره كانت بطيئة النضج.. إن العبقرية التي ولدتها ثقافة العرب في إسبانيا لم تنهض في عنفوانها إلا بعد وقت طويل على اختفاء تلك الحضارة وراء سحب الظلام. ولم يكن العلم وحده هو الذي أعاد أوروبا إلى الحياة، بل إن مؤثرات أخرى كثيرة من مؤثرات الحضارة الإسلامية بعثت باكورة أشعتها إلى الحياة الأوربية. فعلى الرغم من أنه ليس ثمة ناحية واحدة من نواحي الازدهار الأوربي إلا ويمكن إرجاعها إلى مؤثرات الثقافة الإسلامية بصورة قاطعة، فإن هذه المؤثرات توجد أوضح ما تكون وأهم ما تكون في نشأة الطاقة التي تكون ما للعالم الحديث من قوة متمايزة ثابتة، وفي المصدر القوي لازدهاره، أي في العلوم الطبيعية وروح البحث العلمي)) [٤٦].

ويقول المؤرخ الإنجليزي ((ويلز)) [٤٧] في كتابه ((معالم تاريخ الإنسانية)) [٤٨]: ((ولو تهيأ لرجل ذي بصيرة نفاذة أن ينظر إلى العالم في مفتتح القرن السادس عشر فلعله كان يستنتج أنه لن تمضي إلا بضعة أجيال قليلة، لا يلبث العالم أجمع أن يصبح مغوليًا وربما أصبح إسلاميًا)). ويمكن أن نذهب إلى أبعد من هذا، كما فعل مؤ رخ العلم ((جورج سارطون)) [٤٩] حيث قرر أن الثقافة الغربية إنما نمت وترعرعت لأنها كانت في رعاية العالم الإسلامي [٥٠].

وفي هذا يقول الأمير تشارلس ولي عهد بريطانيا في محاضرة قيمة ألقاها في قاعة المؤتمرات بوزارة الخارجية البريطانية في ديسمبر من عام ١٩٩٦م، تحمل

دلالة واضحة بالنسبة للمعنى الذي أشرنا إليه، علاوة على ما فيها من وجوب الترابط بين العلم والأخلاق، وهو الذي تفتقده الحضارة الغربية المادية:

((إن المادية المعاصرة تفتقر إلى التوازن، وأضرار عواقِبها بعيدةٌ في تزايد... إن القرون الثلاثة الأخيرة شهدت ـ في العالم الغربي على أقل تقدير ـ انقساماً خطيراً في طريقة رؤيتنا للعالم المحيط بنا. فقد حاول العلم بسط احتكاره، بل سطوته المستبدة، على طريقة فهمنا للعالم. وانفصل الدين والعلم عن بعضهما بعض، بحيث صرنا الآن كما قال الشاعر ((وردزورث)): "لا نرى إلا القليل في أمنا الطبيعة التي نملكها".

لقد سعى العلم إلى انتزاع الطبيعة من الخالق، فجزأ الكون إلى فرق، وأقصى ((المقدس)) إلى زاوية نائية ثانوية من ملكة الفهم عندنا، وأبعده عن وجودنا العملي. والآن فقط بدأنا نقدر العواقب المدمرة. ويبدو أننا نحن ـ أبناء العالم الغربي ـ قد فقدنا الإحساس بالمعنى الكلي لبيئتنا، وبمسؤوليتنا إزاء الكون كله الذي خلقه ا ، وقادنا ذلك إلى فشل ذريع في تقدير أو إدراك التراث وحكمة السلف، ذلك التراث المتراكم على مدار القرون. والحق أن ثمة تحاملاً شديدًا على التراث، كما لو كان جذاماً اجتماعياً منفراً. وثمة الآن في نظري حاجة إلى مقابلة كلية شاملة. لقد أدى العلم لنا خدمة جليلة في تبيانه لنا أن العالم أعقد بكثير مما كنا نتخيل. ولكن العلم في شكله المادي الحديث، الأحادي، عاجز عن تفسير كل شيء. إن الخالق ليس ذلك الرياضي الذي تخيله نيوتن، وليس صانع الساعة الأول [(1)]. إن انفصال التكنولوجيا عن القيم والموازين الأخلاقية والمقدسة قد بلغ حداً مريعاً مفزعاً. وهذا ما نراه في التلاعب بالمورثات (الجينات) أو في عواقب الغطرسة العلمية التي تتجلى في أبشع صورها في مرض جنون الأبقار.

لقد كنت أستشعر دائما أن التراث في حياتنا ليس من صنع الإنسان، إنما هو إلهام فطري وهبه الخالق لنا لإدراك إيقاع الطبيعة، والتناغم الجوهري الذي ينشأ عن وحدة أضداد متفرقة، ماثلة في كل مظهر من مظاهر الطبيعة. إن التراث يعكس النظام السرمدي للكون، ويشدنا إلى الوعي بالأسرار العظيمة للكون الفسيح، بحيث نستطيع - كما قال الشاعر ((وليم بليك)) - أن نرى كامل الكون في ذرة ونرى الأبدية في لحظة...

إن الثقافة الإسلامية في شكلها التراثي جاهدت للحفاظ على هذه الرؤية الروحية المتكاملة للعالم بطريقة لم نجدها نحن خلال الأجيال الأخيرة في الغرب موائمة للتطبيق. **وهناك الكثير مما يمكن أن نتعلمه من رؤية العالم الإسلامي في هذا المضمار.**

إننا ـ نحن أبناء الغرب ـ نحتاج إلى معلمين مسلمين ليعلمونا كيف نتعلم بقلوبنا كما نتعلم بعقولنا. وإن اقتراب الألف الثالثة قد يكون الحافز المثالي الذي يدفعنا لاستكشاف هذه الصلات وتحفيزها. وآمل ألا تفوت الفرصة السانحة لإعادة اكتشاف الجانب الروحي في رؤيتنا لوجودنا بأجمعه)) (٥١).

العلاقة بين العقل والوحي:

ولعلنا على ضوء ما سبق نستطيع أن نحدد العلاقة بين الوحي والعقل أو الصلة بينهما. وعلى هذا نفهم ما ورد عن تظاهر العقل والشرع، وعن التكامل بينهما كقولهم: «العقل لن يهتدي إلا بالشرع، والشرع لا يتبين إلا بالعقل. فالعقل كالأُس والشرع كالبناء. ولن يغني أُس ما لم يكن بناء، ولن يثبت بناء ما لم يكن أُس.

وأيضاً: فالعقل كالبصر، والشرع كالشعاع، ولن يغني البصر ما لم يكن شعاع من خارج، ولن يغني الشعاع ما لم يكن بصر (٥٢).

والعقل لا يهتدي إلى تفاصيل الشرعيات، والشرع تارة يأتي بتقرير ما استقر عليه العقل، وتارة بتنبيه الغافل وإظهار الدليل، حتى يتنبه لحقائق المعرفة. وتارة بتذكير العاقل حتى يتذكر ما فقده، وتارة بالتعليم، وذلك في الشرعيات وتفصيل أحوال المعاد. فالشرع نظام الاعتقادات الصحيحة والأفعال المستقيمة، والدال على مصالح الدنيا والآخرة. ومن عدل عنه فقد ضل سواء السبيل» (٥٣).

المبحث الثالث: حدود العلم والمنهج التجريبي

تمهيـد:

افتتن الناس في العصر الحديث بما يسمى بالمنهج العلمي التجريبي، وأصبح كثير من الناس يديرون هذه الكلمة على ألسنتهم ويتشدقون بها، ويحسبون أن العلم والمنهج العلمي التجريبي يستطيع أن يحكم على كل شيء في هذا الوجود، وأن كل مالا يخضع لهذا المنهج التجريبي يكون خرافة أو هماً لا ينبغي الإيمان به!.

وقد انقسم العلماء في يقينهم بقدرات العلم وإمكاناته إلى مجموعتين في طرفي نقيض؛ ففي حين يعتقد بعض العلماء أن العلم لا حدود له، وأن ما سوف يحققه العلم لا يقل في جوهره عن أعظم إنجازاته، = يرى الطرف الآخر أن العلم قد استنفد قدراته وأنه على وشك النضوب. كما تباينت الأفكار والآراء حول العلماء أيضًا. وهاجم بعض المفكرين العلماء لاستعلائهم وشعورهم بالكبرياء والغرور المفرط (٥٤).

ولذلك أجد أنه من الضرورة بمكان أن نحدد معنى العلم والمنهج العلمي وحدود هذا المنهج بكلمات موجزة - كما نجده عند أصحاب المنهج العلمي نفسه والمشتغلين بهذه العلوم- لأن ذلك سيحدد المجال الذي يمكن للعلم التجريبي أن يعمل فيه، ويلقي الضوء على موقف العلم نفسه من عالم الغيب.

العلم وحدوده من خلال أقوال العلماء:

ارتقى العِلم الطبيعي، في هذا القرن وفي القرن الماضي، مكانةً لم يبلغها طول تاريخه، وأصبح محط أنظار المعارف الأخرى، وأملها ومبتغاها ومثّلها الأعلى والقبلة التي لا تحيد عنها. وبالرغم من أن ميلاده يعود إلى أربعة قرونٍ مضت، إلا أنه ما يزال حتى اليوم مصطلحًا غامضاً تتضارب حوله الآراء.

وهذا التضارب يعود إلى كثرة الأنشطة الإنسانية التي تحاول الانتساب إلى العلم، والتي لا تفتأ تستخدم ورقة المنهج العلمي كتصريح مرور تدخل به رحاب العلم، بمعنى أن ما يميز العلم عن سائر المعارف الأخرى هو المنهج وليس المحتوى المعرفي (٥٥).

ونعرض فيما يلي طائفة من أقوال أساطين رجال العلم والفلسفة من أهل أوروبا الذين تقدم العلم المادي المعاصر على أيديهم أشواطاً كثيرة، وبهم افتتن كثير من أهل الشرق المسلم:

١. يقول هكسلي (٥٦): ((العلم فيما أعتقد ليس سوى الذوق الإنساني بعد تربيته وتنظيمه ويطلب هذا العلم حقائق الكائنات الطبيعية بواسطة الحواس مع الاستعانة بجميع ما عرف لهذا العهد من أنواع الآلات العجيبة المدهشة مثل المناظير المكبرة (ميكروسكوب) والمناظير المقربة (تلسكوب) وهل أقيمت اكتشافات كبلر ونيوتن إلا على تلك القواعد الثابتة قواعد الشهود بهذه المناظير؟)) (٥٧).

٢. ويقول الأستاذ بلفور في خطبة له: ((يتوقف العلم في تحصيله والتثبت منه على المقاييس؛ فكل مالا يقبل القياس من الأشياء فهو خارج، أو يكاد يكون خارجاً

عن حدوده الطبيعية، ومعلوم أن الحياة والجمال والسرور.. ليست مما يقاس ـ بمقاييس العلم المادي ـ فهي إذن لا تكون من موضوعات العلم)) [٥٨].

٣. ويقول الأستاذ وندل: ((العلم ـ سواء استعان بالآلات أم لم يستعن ـ عماده ما يلاحظه الإنسان ويحسه من الكائنات وما تهديه إليه في المعامل الكيميائية والمعامل الطبيعية التجاريب والآلاتُ التي تمكنه من انتزاع غوامض أسرار الطبيعية من مكامنها العميقة مع بلوغها من الدقة والضآلة ما يكاد يحجبها عن أبصار الرائين.

وإذا أردنا أن نبحث في باطن النظام الآلي للطبيعة أو في خارجه أو قصدنا معرفة ما انبعث عنه هذا النظام وكيف كان مصيره أو حاولنا أن ندرك كنه هذا الكون ومبلغ شعورنا به ولم وجد ولم خلقنا نحن هنا؟

إذا أردنا ذلك فإن العلم الحديث ليس لديه جواب عن شيء منه؛ إذ لا دخل لشيء من ذلك في الحدود المصطلح عليها للعلم.

وإذا كان لا علاقة للعلم الحديث بشيء من تلك المباحث ولا جواب لديه عن أمثال ما قدمنا من الأمثلة، فليس ـ بالطبع ـ لأحد ممن يتكلمون باسم العلم أن يدعي أن ((العلم)) أقام البرهان على عدم وجود ا أو أنه ليس هناك أرواح أو أن هنالك أو ليس هنالك بعد هذه الحياة الدنيا بعث ولا نشور ولا جنة ولا نار الخ...)) [٥٩].

وبعد، فإنه يكون من الجهالة العلمية إذن وقد رأينا مفهوم العلم وفلسفته وحدوده أن يطلب أحد من الناس دليلاً علمياً على كل شيء ينبغي معرفته أو الإيمان به إذ للعلم مجال محدد يستطيع أن يعمل فيه وما عداه فهو خارج عن نطاق اختصاصه يدفعه العلم دفعاً بعدم الاختصاص كما يقول القانونيون مثلاً!!.

إن ((العلم)) يعني تلمس ((الحقائق)) في عالم الحس، وأساس العلم هو الرصد والقياس باستخدام الحواس، ثم معالجة نتائج ذلك القياس بالقوى العقلية.

وإذن فعالم ما وراء الحس لا دخل للعلم به، اللهم إلا ما يمكن إخضاعه -من عالم ما وراء الحس- إلى مستوى الحس بواسطة الآلات والأجهزة مثل الإبرة الممغنطة، أو البوصلة التي تستخدم في التعرف على اتجاهات خطوط قوى المجال المغناطيسي الذي لا نحس نحن به ولا نراه، ولكن تستجيب له الإبرة الممغنطة، ومثل الأشعة السينية التي لا تدركها الأبصار، ولكنها تؤثر في الألواح الحساسة والفوتوغرافية [٦٠].

طرائق العلم وأساليب المنهج العلمي ومراحله:

يقوم المنهج العلمي على الملاحظة المنظمة التي يتم فحصها بصورة دورية ثم توضع نظرية لتفسير هذه المعلومات التي نلاحظها ومن ثم نستخلص القواعد والقوانين التي يمكن تحقيقها بمحاولة تطبيقها في تجارب مكررة حتى يتأكد ثبوتها فتصل إلى ما يسمى بالحقيقة العلمية اليقينية فتكون عندئذ قانوناً عاماً كاشفاً لقانون الفطرة، أي لسنن ا في الكون. وإذا تأيدت انطبقت على القانون الطبيعي (الفطرة) فإذا تنافرت معها فهي لا تكون حقيقة ثابتة بل تخضع للتغيير [٦١].

ويقول أحد المشتغلين بالعلم والمنهج العلمي التجريبي: يهدف العلم إلى تصميم صورة بنائية للعلم المادي تفسر كلّ ما يجري فيه، وتنبئ عما سيؤول إليه حاله مستقبلاً.

وقد توصل العلم إلى عدد من الحقائق وذلك بملاحظة ما يجري من أحداث في هذا الكون وبإجراء تجارب معدة إعداداً خاصاً ثم تجميع نتائجها. ويتم ترتيب وتصنيف تلك الحقائق على أساس منطقي بقدر الإمكان وعندما تؤدي مشاهدات وتجارب من نفس النوع إلى نتائج متشابهة فإنه يمكن التعبير عن تلك النتائج بمنطوقٍ موحدٍ أو قانونٍ.

فمثلاً: دلت المشاهدات في كثير من التجارب الكيميائية التي توزن فيها المواد المتفاعلة والمواد الناتجة من التفاعل على أن أوزان المواد التي تستنفذ في تفاعلٍ ما - وتتلاشى ظاهرياً - تكون مساوية لأوزان المواد الناتجة من التفاعل.

ولسنا بحاجة إلى سرد نتائج كل تجربة من تلك التجارب على حدة؛ إذْ إنه من الممكن تلخيصها بالقانون الآتي: ((لم يلاحظ أي تغير في الوزن الكلي للمواد التي تشترك في تفاعل كيميائي))...

هذا، ويجب ملاحظة أمرين:

١. أن نص القانون ينصب فقط على نتائج التجارب العملية، ولا شأن له بافتراض نظريات أو آراء ما لم تَبد هذه بديهية لأول وهلة.

٢. إذا أعيد إجراء تجربة ما عدة مرات، فقلما تتفق النتائج اتفاقاً تاماً. ويرجع ذلك إلى الظروف التي تجري تحتها تجربة ما لا يمكن إعادتها بالضبط في تجربة أخرى. هذا من جهة، ومن جهة أخرى: فإن التقدير الشخصي للباحث الذي يقوم بالتجربة - وهو عامل لا يمكن التخلص منه تماماً - قلما يكون تقديراً دقيقاً مطلقاً مهما كانت درجة عنايته ومهارته.

وإذا كانت الاختلافات في نتائج التجارب طفيفةً إلا أنها دائماً موجودة ولا شك، مهما كان المجرب على درجة كبيرة من المهارة، ومهما كان الجهاز المستخدم حسن الصنْع والتصميم (٦٢).

وبمعنى آخر: فإن القانون في منطوقة يسبق النتائج التي تصل إليها التجارب؛ لأن القانون يأتي منصباً في نصه على الحالة المثالية التي تقترب منها النتائج، وقد يكون عدد التجارب التي يني عليها القانون كبيراً جداً إلا أنها في الواقع لا تمثل إلا جزءاً يسيراً من مجموع الحالات التي تدخل في نطاقه.

ومع ذلك: فالمفروض أن تطبيق القانون عام شامل، وأنه يمثل نتائج كل ما يمكن تصوره من التجارب المتعلقة به، سواء كان إجراؤها ممكناً أم غير ممكن.

وبذلك يمكن **تعريف القانون** بأنه: ((ملخص النتائج المثالية لعدد كبير من التجارب والمشاهدات)).

وعندما تثبت صحة مجموعة مترابطة من القوانين يوضع فَرض أو نظرية لتفسيرها... ويختلف الفرض عن القانون في أنه يعبر عن آراء من الصعب إخضاعها للتجربة المباشرة.. (٦٣).

ومن هذا العرض لحقيقة العلم وطرائقه وأساليبه في البحث تتضح حدود المنهج العلمي التجريبي وقيمته ويتضح المجال الذي يعمل فيه والمجال الذي لا يستطيع أن يعمل فيه لأنه لا يقع تحت التجربة المادية المباشرة فهو خارج عن نطاق اختصاصه وفي هذا وضع للأمور في نصابها وفي وضعها الطبيعي المناسب لها حتى لا يتشدق أحد باسم العلم والمنهج العلمي لينكر مالا يقع تحت حواسه أو لا يخضع للتجربة المادية.

حدود المنهج العلمي التجريبي:

ونستطيع أن نبرز النقاط التالية التي تلخص لنا حدود العلم المادي والمنهج العلمي التجريبي (٦٤):

١. مهما كانت المشاهدة، أو التجربة والمشاهدة (٦٥)، مباشرة فإنها لا تعدو أن تكون مظهراً خارجياً للحقيقة الواقعية (٦٦)، وليست للحقيقة ذاتها. والفرق كبير بين إدراك الأشياء الخارجية ومعرفة حقائقها.

فمهمة العلم المادي التجريبي محدودة بالعلم المادي الذي هو عالم الشهادة وحده وما سوى ذلك خارج عن نطاق اختصاصه.

يقول العلامةُ المفكر محمد إقبال -رحمه ا - [٦٧]: ((إن الطبيعيات ـ بوصفها علماً تجريبياً ـ تبحث في الأشياء الواقعة تحت التجربة ـ أعني التجربة الحسية ـ فالعالم الطبيعي يبدأ وينتهي بالظواهر الحسية التي بغيرها يستحيل أن يتحقق من صدق نظرياته.

وقد يفترض وجود ذواتٍ لا يدركها الحس كالذرات مثلاً، ولكنه إنما يفعل ذلك لأنه لا يستطيع أن يفسر التجربة الحسية بغيره، فالطبيعيات تدرس العلم المادي، أي العالم الذي تكشفه الحواس.

أما الحركة العقلية التي يتضمنها هذا الدرس وكذلك التجربة الدينية وتجربة الإحساس بالجمال فهي وإن كانت جزءاً من جملة التجربة فإنها أمور خارجة عن ميدان الطبيعيات لسبب ظاهر هو أن الطبيعيات مقصورة على درس عالم المادة ونعني به عالم الأشياء المحسوسة. ولكني حين أسألك عن الأشياء التي تدركها في عالم المادة تذكر بالطبع الأشياء المألوفة حولك كالأرض والسماء والجبال والكراسي والموائد.. الخ فإذا سألتك ما الذي تبغيه من هذه الأشياء على وجه الدقة فإنك تجيب: بأنك تدرك صفاتها. ومن البين أننا عندما نجيب عن سؤال كذا نضع في حقيقة الأمر تأويلاً لشهادة الحواس. وهذا التأويل يقوم على التفرقة بين الشيء وصفاته ومرده في الواقع إلى نظرية في المادة أي في طبيعة أسس الحس وعلاقتها بالفعل المدرك وعللها البعيدة)) [٦٨].

٢. من أمور الكون مالا يمكن إدراكه بالحس المباشر أو غير المباشر ولكن يمكن الاهتداء إليه بوجود شواهد على قرينة منطقية تكفي في الاستدلال على صحة الدعوى بوجوده (الاستنباط) [٦٩]، وفي هذا تبرز حدود جديدة أخرى للعلوم التجريبية متمثلة في حدود العقل البشري وقدرته على الاستنباط السليم.

٣. العلم يشمل كلاً من الحقائق المحسوسة وغير المحسوسة [٧٠]، وهذه الأخيرة لا يمكن تلقيها إلا عن طريق رسالات السماء والوحي، كما تقدم في مصادر المعرفة.

٤. إن الإنسان في ملاحظاته وتجاربه ومشاهداته محدود بحدود وجوده على الأرض في نقطة محدودة من الفضاء الكوني وفي فترة زمنية معينة؛ فاستنتاجاته

نسبية وليست مطلقة؛ فاستنتاجات العلوم التجريبية لا تعدو أن تكون مظهراً للحقيقة، وليست هي الحقيقة ذاتها، فهي فروض قياسية محضة.

إذ يحاول العلم ((أن يضع نموذجاً للطريقة التي يسير عليها الكون والتي على أساسها يمكن أن تفسر ما يجري من أحداث وطبيعي أن هذا النموذج نتيجة لتصورات العقل البشري وسيظل دائماً كذلك ولذا نتساءل: هل ما يجري حقاً في الكون من أحداث يتفق تماماً مع هذا النموذج! أم أن الأمور تجري على أسس أخرى لم يستوعبها العقل البشري بعد؟

الواقع أنه لا يمكن ترجيح رأي على آخر سواء سلكنا طريق التفكير المنطقي أم اتبعنا طريق التجريب العملي.

وبقاء الحكم معلقاً بهذه الصورة مما يوحي بالشك في صحة النظريات العلمية لا بد أن يعوق نمو المعرفة في جميع النواحي المألوفة ويحد من امتدادها إلى ميادين أخرى. لذلك فمن الضروري الاعتقاد بأن الفرض العلمي ـ إذا ما ثبتت صحته ـ لا بد أن يكون ممثلاً حقيقياً لما يحدث في الطبيعة من أمور. وهذا ما يسلم به جميع المشتغلين بالعلم))[(٧١)].

فنتائج العلوم إذن فرضيات افترض أنها تمثل ما يحدث في الكون من أجل نمو المعرفة العلمية وتقدمها. فهي ليست نتائج قطعية نهائية [(٧٢)].

٥. في ازدياد المعرفة للكون دائماً، وفي المراجعة لهذه المعرفة والتحوير فيها، دليلٌ على نقص معرفة الإنسان وعجزه دائماً. فليس هناك حقائق نهائية قاطعة في العلم. ولا يقول العلم دائماً الكلمة النهائية في ما يعرض له من قضايا علمية، وكل يوم نسمع بجديد في آفاق العلم. وكم من النظريات العلمية التي كانت تدرس على أنها الكلمة النهائية في مجالٍ ما.. تغيرت من أساسها مع تقدم العلم.

يقول ((ول ديورانت)) [(٧٣)]: ((أين ذهبت اليوم قوانين نيوتن العظيم حين قَلَبَ آينشتاين وميكوفسكي وغيرهما الكون رأساً على عقِبٍ بمذهب النسبيـة غير المفهوم؟

وأين مكان نظرية عدم فناء المادة وبقاء الطاقة في الميتافيزيقا المعاصرة وما يكتنفها من فوضى وتنازع مما أصاب علومنا؟ وهل فقدت فجأة قداستها وما فيها من حقائق أزلية؟ أيمكِن أن تكون قوانين الطبيعة سوى فروض إنسانية؟

هذه الحقيقة التي يجهلها كثيرون، وهي أن القواعد العلمية الحديثة ليست سوى فروض قام الإنسان بوضعها لتفسير الغوامض التي تحيط به من كل جانب، وقد يكون نصيبها النجاح أو الفشل. وإذا أصابها النجاح فإلى أي مدىً وزمنٍ مقدرٍ؟

عندما ظهرت النظريات الجديدة التي أثبت العلم وجودها ببراهين رآها العلماء مقنعة ونسخت النظريات القديمة وحلت محلها فإذا بالجديدة تعجز عن تعليل بعض الظواهر)) (٧٤).

ويقول الكونت ((دي نوي)): ((إن القوانين العلمية قوانين نسبية للإنسان الذي هو الآلة تتابع الحالات النفسية التي تنتج عن هذه القوانين بالضرورة: نسبية وذهنية وصلاحها يرتبط بالإنسان ويعتمد على تماثل الانعكاسات لدى مختلف الأشخاص لنفس المنبهات الخارجية.

ومن هنا يتضح أن بعض التعابير كالحقيقة العلمية يجب أن تؤخذ بحدود ضيقة وليس بالمعنى الحرفي كما يظن العامة فليست هناك حقيقة علمية بالمعنى المطلق.

وإذا كان العالم في القرن التاسع عشر الميلادي لديه الجرأة لأن يقول: إن الحالة (أ) تتبع الحالة (ب) والحالة (د) تتبع الحالة (ج) فإن العالم في القرن العشرين أكثر تحفظاً وأقرب إلى التواضع منه إلى الغرور ولا يجزم بشيء))

ويقول: ((إن التغير، لا الثبات، هو الطابع الذي يتميز به العِلْم ((اليوم))، وإن أبحاث العلماء وأقوالهم تؤكد نقص العلم البشري، وإن هذه النظرية الجديدة هي الصحيحة التي تعبـر عن الحقيقة والواقع، وتساهم بدفع العلم إلى الأمام، بعكس النظرية القديمة التي تشكل أكبر عقبة في طريق ازدهار العلم وقطف ثماره)) (٧٥).

وإلى هذه الحقيقة أشار الله تعالى بقوله: **وما أُوتيتُم مِن العِلمِ إلا قليلاً** (الإسراء: من الآية٨٥)

٦. إن المشتغل بالعلوم التجريبية يتأثر بالميراث الثقافي والعلمي السابق وقد انطلق علماء أوروبا في كتابتهم للعلوم من منطلق مادي إلحادي بناء على ذلك. وفي هذا تفسير لإنكارهم لعالـم الغيب وما وراء الحس تأثراً بأفكارهم المادية التي اعتنقوها لمعارضة الكنيسة ورجال الدين النصراني في أوروبا (٧٦).

٧. إن العلم يظل قاصراً؛ لعدم اعترافه بعديد من الحقائق والمعاني التي أهملها العلماء إهمالاً تاماً، وهي التي تقع في مجال عالم الغيب (غير المادة).

يقول ((وايتهد)) [٧٧] - في محاولة للتقريب بين الفلسفة والعلم- في كتابة ((مقدمة في الفلسفة المادية)): إن هذه الحقائق الأخرى أعطت للعالم صورته المعروفة، وخلقت ما فيه من قِيَمٍ ومثُلٍ، وإن العلم بعدم اعترافه بهذه الحقائق يقف حجر عثرة في وجه المبادئ الإنسانية والقيم الأخلاقية والمبادئ الدينية [٧٨].

الخاتمـة

والخلاصة التي نختم بها هذا البحث، هي إلماعة بكلمات موجزة إلى إشارات ثلاثة:

الإشارة الأولى: إن الإسلام -وهو دين ا للبشرية كلها- قد أحلّ العقل مكانته التي تليق به، وعِني به عناية فائقة، وهيأ المناخ المناسب لنشوء المنهج العلمي بكل فروعه، وليس مطلوبًا من القرآن الكريم أن يكون كتاب علمٍ بالمعنى الضيق لكلمة العلم، فلا ينبغي أن نحمل الآيات ما لا تحتمل، ولا أن نصطنع جفوة بين الدين والعلم -كما يحلو لبعض الكاتبين أن يفعل ذلك-

وأما الإشارة الثانية: فهي إيماءة سريعة إلى ذلك الأثر العلمي المتنوع الذي تركه المسلمون في الغرب، في شتى حقول المعرفة مما اعترف به المنصفون من الباحثين الغربيين أنفسهم. ولا بأس من أن نستدعي بعضهم للشهادة، علاوة على بعض النصوص التي تقدمت في مواضعها السابقة.

يقول البروفسور ((كولريونج)) في محاضرة له: ((هذا عرض تاريخي قصد به التذكير بالدين الثقافي العظيم الذي ندين به للإسلام منذ أن كنا –نحن المسيحيين داخل هذه الألف سنة- نسافر إلى العواصم الإسلامية وإلى المعلمين المسلمين، ندرس عليهم العلوم والفنون وفلسفة الحياة الإنسانية. وفي جملة ذلك تراثنا الكلاسيكي الذي قام الإسلام على رعايته خير قيام، حتى استطاعت أوربا مرة أخرى أن تتفهمه وترعاه.

كل هذا يجب أن يمازج الروح التي نتجه بها –نحن المسيحيين- نحو الإسلام، نحمل إليه هدايانا الثقافية والروحية. فلنذهب إليه-إذن- في شعور بالمساواة، نؤدي الدين القديم.

ولن نتجاوز حدود العدالة إذا نحن أدينا ما علينا بربحه! ولكننا سنكون مسيحيين حقًا إذا نحن تناسينا شروط التبادل، وأعطينا في حب واعترافٍ بالجميل)) [٧٩].

وهنا تتسع الخاتمة **لإشارة ثالثة** تؤكد عميق الصلة بين العلم والأخلاق، ووجوب التوازن في النظرة إلى العالم والكون والإيمان. وهذا ما سبقت الإشارة إليه في موضع سابق عن التوازن بين مصادر المعرفة.

التوصيـة

وأما التوصية التي أجد أنه من الواجب أن أذكر نفسي وإخواني بها، **فهي:**

(١) الإلحاح على ربط العلوم الطبيعية بالدين، وتوثيقُ الصلة بين مناهج العلم ومناهج الدين، فهذه سنن الله الإيمانية، وتلك هي سنن الله الكونية والطبيعية (أي في الكون والطبيعة)، ولابد أن تنسجم هذه مع تلك، ولا بد أن نفسر الحقائق العلمية بمنظورٍ إيماني، وأن نفهم كثيرًا من آيات القرآن الكريم -ذات الدلالات العلمية- في ضوء الحقائق العلمية القطعية.. على أن هذا الكلام لا يجوز أن يحملنا على التأويل المتكلف والتمحل في تفسير آيات القرآن الكريم وبيان مدلولاتها. وهذا الكلام قد يحتاج إلى تفصيل وأمثلة لا يتسع المقام لعرضها.

(٢) ومما يتصل بهذا أيضا: الاهتمام بالحركة العلمية والمنهج العلمي وتاريخ العلوم الإسلامية في الدراسات الجامعية وفي المعاهد العليا، بعد تهيئة مناسبة في مراحل التعليم العام. ولا يكون هذا قاصرًا على كليات العلوم ونحوها، بل ينبغي أن يأخذ مكانه اللائق به في كليات الشريعة وأصول الدين والمعاهد الدينية. ولعل ذلك يكون سبيلاً لنشوء نهضة علمية دينية حقيقية نربط بها حاضر الأمة بماضيها، ونستدرك ما فاتنا في عصرنا الحاضر، حيث سبقَنا غيرنا في العلم أشواطًا واسعة. والعجب في ذلك أن كثيرًا من علماء المسلمين في اختصاصات علمية متنوعة كانوا روادًا في العلم الذي سبقَنا به الغرب، وهم الذين ساهموا في صنع تلك الإنجازات العلمية!

(٣) وأخيرا: لعله من المناسب هنا توجيه العناية إلى بذل الجهد لتبسيط العلوم بإصدارات متنوعة تلبي حاجة الجميع في كل المراحل والمستويات العلمية والثقافية العامة، مع العناية بكتابتها بمنهج إيماني، وعدم تفسير الظواهر العلمية بما يخالف الدين، وقد تقدم أنهما متفقان، فإن صحيح المنقول (النصوص الدينية الصحيحة) لا يخالف صريح المعقول. وهذا يؤدي إلى نشر ثقافة علمية دينية بعيدة عن السطحية والأوهام.

وقُل اعملُوا فَسيرى الله عملكُم ورسوله والمؤمِنُون. والحمد لله رب العالمين.

الهوامش

(١) سورة البقرة، الآية ٣٠.
(٢) سورة الذاريات، الآية ٥٦.
(٣) سورة هود، الآية ٦١.

(٤) يقول الإمام الشاطبي في كتابه ((الموافقات في أصول الشريعة)) ١/ ٨٨: ((إن معنى الشريعة أنها تحد للمكلفين حدوداً في أفعالهم وأقوالهم واعتقاداتهم، وهو جملة ما تضمنته)).

(٥) سورة العلق، الآيات ١-٥.

(٦) البحث العلمي هو استقصاء دقيق يهدف إلى اكتشاف حقائق وقواعد عامة يمكن التحقق منها مستقبلاً. انظر بالتفصيل: مناهج البحث العلمي، د. طلعت همام، ص (٣٧-٤١).

(٧) سورة الروم، الآية ٣٠.

(٨) كتاب من تأليف كريسي موريسون، مطبوع بمكتبة النهضة المصرية بالقاهرة عام ١٩٦٥م. وأصل العنوان: الإنسان لا يقوم وحده، ترجمة محمود باشا الفلكي، كتبه ردًا على كتاب يدعو إلى الإلحاد بعنوان: الإنسان يقوم وحده.

(٩) لشيخ الإسلام ابن تيمية كتاب ضخم بعنوان: درء تعارض العقل والنقل، أو موافقة صحيح المنقول لصريح المعقول، طبع كاملاً بتحقيق الدكتور محمد رشاد سالم، مطابع جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض.

(١٠) انظر: مجالات وقضايا الفكر العلمي، د. أحمد فؤاد باشا، مقال بمجلة العلوم والتقنية، تصدرها مدينة الملك عبد العزيز للعلوم والتقنية، العدد (٥٦) شوال ١٤٢١هـ ص (٥-٧). وراجع: فلسفة العلوم، د. بدوي عبد الفتاح محمد، ص (٣٩-٤٤).

(١١) المصادر في اللغة العربية جمع لكلمة مصدر، وهي مأخوذة من الصاد والدال والراء. وهذه المادة تعني: أعلى مقدّم الشيء وأوله. حتى إنهم يقولون: صدر النهار والليل... ويقال: أصدرتُه فصدر، أي رجعته فرجع. ومنه مصادر الأفعال، لأن المصدر أصلُ الكلمة التي تصدر عنها الأفعال وترجع إليها. وعلى هذا: فمصادر المعرفة - بعامة- هي المقاييس والمعايير التي يمكن بها معرفة الأحكام أو الموجودات. انظر: لسان العرب لابن منظور: ٤/ ٤٤٥-٤٤٩.

(١٢) انظر: معجم مقاييس اللغة لابن فارس: ٤/ ٤٠٣، مفردات القرآن للراغب الأصفهاني، ص (٣٦٦-٣٦٧)، تفسير الطبري: ١/ ٣٧٧، أحكام القرآن لأبي بكر بن العربي: ١/ ٨-٩، النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير الجزري: ٣/ ٣٩٩، المصباح المنير للفيومي: ٢/ ٤٥٧-٤٥٨.

(١٣) انظر: معجم مقاييس اللغة: ٣/ ١٢١، التعريفات للشريف الجرجاني، ص (١٠٩)، كشاف اصطلاحات الفنون للتهانوي: ٣/ ٧٤٠. المصباح المنير للفيومي: ١/ ٣٢٤-٣٢٥.

(١٤) انظر: شرح المواقف للشريف الجرجاني: ١/ ٩٨ وما بعدها، تمهيد الأوائل وتلخيص الدلائل للقاضي الباقلاني، ص٢٨ وما بعدها، شرح المقاصد للسعد التفتازاني: ١/ ٢١٠، شرح العقائد النسفسة، للتفتازاني: ١/ ٤٨ وما بعدها.

(١٥) هو أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية الحراني الدمشقي، واسع العلم والمعارف العقلية والنقلية، صاحب المؤلفات الكثيرة منها: درء تعارض العقل والنقل، ومنهاج السنة النبوية، ومجموع الفتاوى وغيرها كثير. توفي سنة ٧٨٢هـ. انظر: الذيل على طبقات الحنابلة لابن أبي يعلى: ٢/ ٣٨٧.

(١٦) درء تعارض العقل والنقل، لشيخ الإسلام ابن تيمية: ٧/ ٣٢٤-٣٢٥.

(١٧) مقال عن المنهج، تأليف رينيه ديكارت، ترجمة محمود محمد الخضيري، ص (٥٠). وانظر: مناهج البحث العلمي، د. طلعت همام، ص (٢٥-٢٦).

(١٨) العقل في اللغة العربية، يطلق على القيد الذي يقيد به البعير، لئلا يند، وسميت الـملَكةُ التي يتميز بها الإنسان «عقلاً»، تشبيهاً لها بالقيد، على عادة العرب في استعارة أسماء المحسات للأمور المعنوية. وقد عنِي علماء الشريعة عند حديثهم عن التكليف ومقاصد الشريعة ومكارمها بالحديث عن العقل وأنواعه ومنازله وتنوع أسمائه بحسب ذلك؛ فهو يطلق على أمرين: ١ - القوة الفطرية التي أودعها ا تعالى في الإنسان، وخلقه عليها متهيئاً بسببها لقبول العلم، وهذا هو محل التكليف ومناط الأمر والنهي، وبه يكون التمييز والتدبير. ٢ - ويطلق كذلك على العلم الذي يستفيده الإنسان بتلك القوة الفطرية، وهذا هو العقل المستفاد، وإليه الإشارة في القرآن الكريم في كل موضع ذم ا تعالى فيه الكفار بعدم العقل (١٧)، كقوله تعالى: {صم بكم عمي فهم لا يعقِلُون} (البقرة: ١٧١). وقد عني علماء اللغة ببيان أسماء العقل وتنوعها بحسب مقاماته، مع بيان الفروق بينها في الاستعمال. وليس من غرضنا هنا تقديم دراسة كاملة عن العقل، فحسبنا هذه الإشارات لنخلص بعدها إلى قيمة العقل ومكانته في الإسلام. انظر: «الذريعة إلى مكارم الشريعة» للراغب الأصفهاني، ص (٥٩ - ٦١)، «الفروق اللغوية» لأبي هلال العسكري ص (٦٦، ٦٧)، «الكليات» لأبي البقاء الكفوي: ٣/ ٢١٩، ٢٢٠، ٢٥٣، «تأملات في وسائل الإدراك» د. محمد الشرقاوي ص (١٥) وما بعدها، وراجع كلمة: النهى، والحِجر، والحِجى، واللب، والفؤاد، والقلب ـ في «المفردات» للراغب، و«بصائر ذوي التمييز».

(١٩) درء تعارض العقل والنقل، لشيخ الإسلام ابن تيمية: ٧/ ٤٢٤.

(٢٠) انظر: «مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح»للملا علي بن سلطان القاري: ٦/ ٢٨٨ - ٢٩١، «عون المعبود شرح سنن أبي داود» للمباركفوري: ١٢/ ٧٢، ٧٣

(٢١) أخرجه البخاري تعليقًا في الطلاق: ٩/ ٣٨٨، والإمام أحمد في المسند: ٦/ ١٠٠، وأبو داود في السنن: ٩/ ٣٨٨، والترمذي: ٤/ ٦٨٥، وصححه ابن خزيمة والحاكم وابن حبان. انظر: « إرواء الغليل)): ٢/ ٤-٧، و ((صحيح الجامع الصغير» كلاهما للألباني، برقم (٣٥١٢).

(٢٢) انظر: ((الموافقات في أصول الشريعة)) للإمام الشاطبي: ٢/ ٨-١٠، ((المستصفى)) للإمام الغزالي: ١/ ٢٨٧، إعلام الموقعين لابن القيم الجوزية: ٣/ ٥ وما بعدها.

(٢٣) قال الإمام السمعاني: «إن ا تعالى أسس دينه وبناه على الاتباع، وجعل إدراكه وقبوله بالعقل». انظر: «الحجة في بيان المحجة» للأصفهاني: ١/ ٣١٧.

(٢٤) انظر بالتفصيل: «المقاصد العامة للشريعة»، ص (٣٤٤) وما بعدها. «مذاهب فكرية معاصرة» ص (٥٣) وما بعدها. «خصائص التصور الإسلامي» ص (٥٤) وما بعدها. «منهج المدرسة العقلية في التفسير» ١/ ٢٩ - ٣٩. «المدخل إلى الثقافة الإسلامية» ص (٢٢٦ ٢٣٠). «عالم الغيب والشهادة في التصور الإسلامي»، ص (٢٦) وما بعدها.

(٢٥) انظر: خصائص التصور الإسلامي، للأستاذ سيد قطب، ص (٥٨-٦٠)، تهافت العلمانية، د. عماد الدين خليل، ص (٣٤-٣٦).

(٢٦) مذاهب فكرية معاصرة، للأستاذ محمد قطب، ص (٥٣١-٥٣٢). ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية: ((والرسل جاءت بما يعجز العقل عن دركه، ولم تأت بما يعلم بالعقل امتناعه، لكن المسرفون فيه: قضوا بوجوب أشياء وجوازها وامتناعها لحجج عقلية –بزعمهم- اعتقدوها حقًا، وهي باطل، وعارضوا بها النبوات وما جاءت به. والمعرضون عنه: صدقوا بأشياء باطلة ودخلوا في أحوال وأعمال فاسدة، وخرجوا عن التمييز الذي فضل ا به بني آدم على

غيرهم)). انظر: مجموع الفتاوى: ٣/ ٣٣٩، و٥/ ٣٠، والجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح: ٣/ ١٣٠-١٣٤، وعقيدة المسلم للشيخ محمد الغزالي، ص (٤٩).

(٢٧) انظر بالتفصيل: مذاهب فكرية معاصرة للأستاذ محمد قطب، ص (٥٣٣-٣٥٣)، وخصائص التصور الإسلامي للأستاذ سيد قطب، ص (٥٤-٦٠).

(٢٨) ينقسم العلم إلى قسمين: قديم وحادث. فالعلم القديم هو العلم القائم بذاته سبحانه وتعالى، ولا يشبه العلوم المحدثة للعباد. والعلم المحدث ينقسم إلى بديهي أو ضروري، واستدلالي. فالبديهي أو الضروري: ما حصل في العالم بإحداث ا تعالى وتخليقه، من غير أن يكون للعالم فيه فعل الكسب والاختيار، ولا قدرة التحصيل أو الترك. أو هو ما لا يحتاج إلى تقديم مقدمات للعلم به. وهو ثلاثة أنواع: أ) العلم الحاصل بواسطة الحواس الخمس. ب) والعلم الحاصل بالأخبار المتواترة، نحو العلم بالبلدان النائية والأمم الماضية. ج) والعلم الحاصل ببدائه العقول من غير تأمل ونظر في الأصول، كعلم الإنسان بوجود نفسه وما يحدث فيه من الألم واللذة، وأن كل شيء أكبر وأعظم من جزئه ونحو ذلك. و أما العلم الاستدلالي: فهو ما يحتاج إلى تقديم مقدمة، كالعلم بوجود الخالق وحدوث الكون. وهو نوعان: عقلي وسمعي. فالعقلي: هو ما يعرف بمجرد العقل والتأمل والنظر في المحسات والبدائه من غير واسطة الدليل السمعي الشرعي، كالعلم بحدوث العالم ووجوده بعد أن لم يكن. والعلم العقلي هذا يفيد القطع واليقين بالشيء المعلوم. و أما السمعي: فهو ما يعرف بالنظر في المسموعات، أي الأدلة الشرعية، ولا يعرف بالعقل وحده بدون واسطة السمع، كالعلم بالحلال والحرام، وسائر ما شرع ا تعالى من الأحكام. وهذا العلم السمعي قد يفيد القطع واليقين، وقد يفيد الظن ويوجب العمل لا العلم واليقين. انظر: التعريفات للشريف الجرجاني، ص (١٣٦)، وميزان الأصول في نتائج العقول، للعلاء السمرقندي، ص (٨-١٠).

(٢٩) انظر: مجموع الفتاوى لشيخ الإسلام ابن تيمية: ٤/ ٣٠، درء تعارض العقل والنقل، له أيضًا: ٧/ ٣٢٥.

(٣٠) انظر: درء تعارض العقل والنقل: ٧/ ٣٢٢-٣٢٦.

(٣١) ولذلك جاء التحذير من أن يتكلم المرء في أصول الدين، بل وفي غيرها، بغير علم. قال ا تعالى: ﴿ولا تقفُ ما ليس لك به علم، إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولاً﴾ (سورة الإسراء، الآية: ٣٦). وقال تعالى: ﴿ومن الناس من يجادل في ا بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير﴾ (سورة الحج، الآية: ٨). وقال تعالى: ﴿إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس، ولقد جاءهم من ربهم الهدى﴾ (سورة النجم، الآية ٢٣).

(٣٢) عقد العلامة ابن خلدون في الباب الأول من مقدمته المشهورة المسألة السادسة في أصناف المدركين للغيب من البشر، الذين يخبرون عن الغيب مما يعطي علمًا يقينيًا كالأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وفيه فسر حقيقة النبوة والوحي، وذكر أصناف من يخبرون عن ذلك من البشر العاديين؛ فذكر الكهانة والرؤيا والحساب. ثم قال: وإدراك هؤلاء مشوب فيه الحق بالباطل، لأنه لا يحصل لهم الاتصال، وإن فقدوا الحس، إلا بعد الاستعانة بالتصورات الأجنبية.. ومن ذلك يجيء الكذب في هذه المدارك، ويدعون معرفة الغيب، وهو ليس من معرفة الغيب على الحقيقة. انظر: مقدمة ابن خلدون، ص (١٥٩-٢٠٩).

(٣٣) الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي، د. محمد البهي، ص (٢٤٩).

(٣٤) دافيد هيوم (١٧١١-١٧٧٢م) فيلسوف ومؤرخ اسكتلندي، عرف بمذهب الشك. له كتاب ((رسالة في الطبيعة البشرية)). انظر: الموسوعة العربية الميسرة: ٢/ ١٩٣٣.
(٣٥) الفكر الإسلامي الحديث، مرجع سابق، ص (٢٣٣).
(٣٦) أوغست كونت (١٧٩٨-١٨٥٧) فيلسوف فرنسي، مؤسس الفلسفة الوضعية التي ترفض الميتافيزيقا وتعتمد على نتائج العلوم الطبيعية الحديثة، له ((محاضرات في الفلسفة الوضعية)). انظر: الموسوعة العربية الميسرة: ٢/ ١٥١٧.
(٣٧) لمعرفة نظرية أوغست كونت وأضرابه بالتفصيل، وللرد عليها انظر: العلمانية: نشأتها وتطورها، د. سفر الحوالي، ص (٣٧٧-٣٨٠) والفكر الإسلامي للبهي، ص (٢٣٣-٢٣٧) والدين: بحوث ممهدة للدكتور محمد عبد ا دراز، ص (٨٤-٨٦).
(٣٨) ماكس مولر (١٨٢٢-١٩٠٠) عالم لغوي ومستشرق ألماني، رحل إلى أكسفورد وأقام بها حتى وفاته، له ((علم اللغة)) ونشر عددًا من الكتب الدينية غير المسيحية. انظر: الموسوعة العربية الميسرة: ٢/ ١٧٨٧.
(٣٩) نشأة الدين، د. علي سامي النشار، ص (٧٠-٧١).
(٤٠) تأملات في سلوك الإنسان، د. إلكسيس كاريل، ص (١٦٢).
(٤١) انظر: الإسلام والعلم، للأستاذ توفيق الطيب، ص (١٧) منشور بمجلة حضارة الإسلام بدمشق، عدد شوال ١٣٨٥هـ.
(٤٢) انظر: منهج التربية الإسلامية، للأستاذ محمد قطب: ١/ ١٥٥.
(٤٣) انظر: خصائص التصور الإسلامي، للأستاذ سيد قطب، ص (٥) وما بعدها، والتصور الإسلامي للكون والحياة والإنسان، عثمان جمعة ضميرية، ص (١٦) وما بعدها.
(٤٤) الحافظ أبو محمد، علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي، كان رأسًا في العلوم الإسلامية متبحرًا في العلوم العقلية، له ((المحلى)) و ((الإحكام في أصول الأحكام)) توفي سنة٤٥٦هـ. انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي: ١٨/ ١٨٤-٢١٢.
(٤٥) انظر: تجديد التفكير الديني في الإسلام، تأليف محمد إقبال، ترجمة عباس محمود، ص (١٤٨).
(٤٦) تجديد التفكير الديني في الإسلام، ص (١٤٩).
(٤٧) هربرت ج ويلز: عالم ومؤرخ إنجليزي، يعتبر من مؤسسي الخيال العلمي، من كتبه ((موجز تاريخ العالم)). انظر: الموسوعة العربية الميسرة: ٢/ ٨٩٠
(٤٨) معالم تاريخ الإنسانية، ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد: ٣/ ٩٦٦.
(٤٩) جورج سارطون (١٨٨٤-١٩٥٦) عالم أمريكي، من أكبر مؤرخي العلم في عصره، رحل إلى البلاد العربية ليدرس العربية ويطلع على مآثر العرب في العلم كما تتجلى في مخطوطاتهم الأصلية. أهم آثارة ((تاريخ العلم)) وهو مطبوع باللغة لعربية. انظر: موسوعة المورد: ٨/ ٢١٣.
(٥٠) وألقى محاضرة مطولة حول ذلك في بيروت بعنوان ((الثقافة الغربية في رعاية الشرق الأوسط)) ونقلها إلى العربية الدكتور عمر فروخ، وطبعت في دار العلم للملايين، ١٩٤٩م.
(٥١) جريدة الشرق الأوسط، العدد ٦٥٩٢ بتاريخ ١٥/ ١٢/ ١٩٩٦، نقلا عن كتاب " كيف ندعو الناس " للأستاذ محمد قطب ص (١٨٦ - ١٨٧). وينقل فقرات من هذه المحاضرة أيضاً: الدكتور مراد هوفمان في كتابه: الإسلام في الألفية الثالثة: ديانة في صعود، ص١٤٤-١٤٥.

(٥٢) قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه ا : «العقل شرط في معرفة العلوم وكمال الأعمال وصلاحها، وبه يكمل العلم والعمل، لكنه ليس ـ مستقلاً بذلك، لكنه غريزة في النفس وقوة فيها، بمنزلة قوة البصر التي في العين فإن اتصل به نور الإيمان والقرآن كان كنور العين إذا اتصل به نور الشمس». انظر: «مجموع الفتاوى» ٣/ ٣٣٨، ٣٣٩.

(٥٣) انظر:. «تفصيل النشأتين وتحصيل السعادتين» للراغب الأصفهاني، ص (١٤٠ - ١٤٢) باختصار وهو بنصه في «معارج القدس في مدارج النفس» للغزالي، ص (٥٧ - ٥٩). وراجع: «الحقيقة في نظر الغزالي»، د. سليمان دنيا ص (٢٨٠، ٢٨١)، «مـدخـل إلى الـعـقـيـدة الإسـلامـيـة»، د. يحيى هاشم فرغل، ص (١٥١ - ١٥٢).

(٥٤) انظر: آلية التطور العلمي وحدود العلم، د. دحام إسماعيل العاني، بمجلة العلوم والتقنية، مرجع سابق، ص (٣٨).

(٥٥) العلم لغة مرادف للمعرفة. ويتضح لنا هذا من جذرهما اللغوي الواحد، سواء في اللغة اللاتينة أو اللغة العربية. فلفظ العلمscience مشتق من الأصل اللاتيني scire بمعنى To Know أي يعرف. وفي اللغة العربية يرادف العلم المعرفة، فنحن نقول: علم الشيء بمعنى عرفه. غير أن هذا الترادف بينهما لا يعني تساويهما في العمومية والخصائص. بل هناك تمايز بينهما؛ فالعلم ليس أي معرفة، وإنما هو معرفة من نوع خاص تلتزم بشروط منطقية ومنهجية. فالعلم –فلسفيًا - هو الإدرك مطلقًا، سواء كان يقينيًا أو غير يقيني.. وإذا كان العلم مرادفًا للمعرفة، فهو يتميز عنها بكونه مجموعة من المعارف التي تتصف بالوحدة والتعميم. انظر: لسان العرب لابن منظور، الصحاح للجوهري: مادة (علم)، فلسفة العلوم، د. بدوي عبد الفتاح، ص (٣٩)، المعجم الفلسفي، جميل صليبا: ٢/ ٩٩.

(٥٦) توماس هنري هكسلي (١٨٢٥-١٨٩٥) عالم بيولوجي، كان داعية لنظرية دارون، له محاضرات ومقالات جمعت في أربع مجلدات. انظر: الموسوعة العربية الميسرة: ٢/ ٨٩٩.

(٥٧) نقلاً عن كتاب: الإسلام دين الفطرة للشيخ عبد العزيز جاويش، ص (١٧٧).

(٥٨) المرجع السابق نفسه.

(٥٩) المرجع السابق، ص (١٧٨).

(٦٠) انظر: ا والكون، د. محمد جمال الدين الفندي، ص (٥٥).

(٦١) انظر بحثًا للدكتور زغلول النجار عن: إعادة كتابة العلوم من وجهة نظر إسلامية، قدمه لمؤتمر التضامن الإسلامي في مجالات العلوم والتكنولوجيا، الرياض ١٣٩٥هـ، منشور في وقائع المؤتمر وفي مجلة المجتمع الكويتية.

(٦٢) انظر: الكيمياء العامة وغير العضوية، تأليف ب. ج. ديرانت، ترجمة د. سامي طوبيا وآخرين، ومراجعة: د. رشاد رزوق: ١/ ١-٢، منشور ضمن مجموعة الكتب التي يشرف على إعدادها المجلس الأعلى للعلوم بالقاهرة.

(٦٣) المرجع السابق نفسه.

(٦٤) النقاط الست الأولى عن الدكتور زغلول النجار في بحثه السابق، بتصرف وزيادة في بعض النقاط والأمثلة التي أشير إليها مراجعها في مواطنها.

(٦٥) للتعرف على قيمة التجربة ومدى الاعتماد عليها وحدودها، انظر: موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين وعباده المرسلين، الجزء الثاني، للشيخ مصطف صبري.

(٦٦) قال ا تعالى: يَعۡلَمُونَ ظَٰهِرٗا مِّنَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ عَنِ ٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ غَٰفِلُونَ (سورة الروم: ٧).

(٦٧) شاعر وفيلسوف هندي مسلم، نظم شعره بالعربية والفارسية والأوردية، وكان أول من دعاإلى إنشاء دولة الباكستان، من أشهر آثاره الفلسفية: ((تجديد التفكير الديني في الإسلام))، توفي سنة ١٩٣٨م. انظر: موسوعة المورد: ٥/ ٢٠٣.

(٦٨) انظر: تجديد التفكير الديني في الإسلام، تأليف محمد إقبال، ترجمة عباس محمود، ص (٤٠-٤١).

(٦٩) انظر بالتفصيل: منهج البحث عند مفكري الإسلام واكتشاف المنهج العلمي في العالم الإسلامي، د. علي سامي النشار، ص (٢٦١) وما بعدها.

(٧٠) جاء في البحث كلمة (المحسوس) وهي اسم مفعول من (حس) بمعنى استأصل أو قتل، قال ا تعالى: (إذْ تحسونهم بإذنه). والصحيح أن يؤخذ اسم المفعول هنا من (أحس) بمعنى أدرك بحواسه وعلمه، قال تعالى: (فلما أحس عيسى منهم الكفر). ولذلك جاء الاستعمال للكلمة بالمعنى الأول على ما هو شائع فحسب. انظر: ترتيب القاموس المحيط: ١/ ٦٣٩، والمعجم الوسيط، إصدار مجمع اللغة العربية بالقاهرة: ١/ ١٧٢.

(٧١) انظر: الكيمياء العامة وغير العضوية: المرجع السابق: ١/ ٣و٤.

(٧٢) ظل مبدأ الحتمية مقبولاً في العلم حتى نهاية القرن التاسع عشر أو قبل ذلك بقليل، غير أن بعض الظواهر الجديدة في مجال الهيدروديناميكا (ديناميكا الغازات) أو الديناميكا الحرارية، بدت وكأنها لا تطيع قوانين الميكانيكا الكلاسيكية، ومن ثم بدأت الثقة تضعف بمبدأ الحتمية العام أو الحتمية الآلية... وأصبحت النظريات الحديثة تأخذ بمبدأ اللاحتمية، مع التنبيه إلى أن هذا لا يعني استخلاص أية نتائج فلسفية تتجاوز تطبيق مبدأ اللاحتمية على علم الفيزياء، مثل القول بالحرية الإنسانية؛ فمجال الطبيعة يختلف عن مجال الإنسان. وهنا نجد أيضًا خلافا بين العلماء لا يحتمل المقام تفصيله وبسطه. انظر: فلسفة العلوم، د. بدوي عبد الفتاح، ص (٣٥٢-٣٥٥).

(٧٣) مؤلف أمريكي وقف جهوده على تبسيط التاريخ والفلسفة، من آثاره: ((قصة الفلسفة)) ((قصة الحضارة)) , توفي عام ١٨٨٥/. انظر: موسوعة المورد: ٤/ ٩.

(٧٤) النص منقول عن: مقدمات المناهج للأستاذ أنور الجندي، ص (٢٣). وانظر: فلسفة العلوم، د. بدوي عبد الفتاح، ص (٣٤٥-٣٥٥). وأشار إلى: المنطق وفلسفة العلوم، بول موي، ص (٢٣٧-٢٣٨) ومقدمة لفلسفة العلوم، عزمي إسلام، ص (١٧٦-١٧٧).

(٧٥) المرجع السابق، ص (٢٤).

(٧٦) انظر بالتفصيل: المستقبل لهذا الدين، للأستاذ سيد قطب، ص (٢٧-٥٤)، مذاهب فكرية معاصرة، للأستاذ محمد قطب، ص (٩) وما بعدها، وفيما سبق عن الصراع بين الدين والحس والعقل في الفكر الأوربي..

(٧٧) وايتهيد: فيلسوف ومؤرخ إنجليزي درس في كمبردج، وهو من أصحاب الاتجاهات الميتافيزيقية والواقعية المحدثة، له كتب في الجبر والفلسفة. انظر: فلسفة العلوم، د. بدوي عبد الفتاح، ص (٣٥١).

(٧٨) نقلاً عن: مقدمات المناهج للأستاذ أنور الجندي، ص (٢١). وانظر: فلسفة العلوم، مرجع سابق، ص (١٤).

(٧٩) من بحث له ألقاه في الندوة العالمية عن الثقافة الإسلامية في جامعة برنستون، واشترك فيها عدد من العلماء والباحثين المسلمين والغربيين، ونشرت بحوثهم في كتاب ((الثقافة الإسلامية

والحياة المعاصرة)) تحرير الدكتور محمد خلف ا أحمد، القاهرة، ١٩٥٥م. وانظر: أثر العرب في النهضة الأوربية، مرجع سابق، ص (٥).

مصادر البحث ومراجعه

١. أثر العرب والإسلام في النهضة الأوربية، لمجموعة من الباحثين، بإشراف مركز تبادل القيم الثقافية بالتعاون مع منظمة اليونسكو، مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٧م.
٢. أحكام القرآن لأبي بكر بن العربي، تحقيق علي محمد البجاوي، مطبعة عيسى البابي الحلبي بمصر، ١٣٩٤هـ.
٣. إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل، للشيخ محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي بدمشق، ١٣٩٩هـ.
٤. الإسلام دين الفطرة للشيخ عبد العزيز جاويش، سلسلة كتاب الهلال بمصر، ١٩٦٨م.
٥. الإسلام في الألفية الثالثة: ديانة في صعود، تأليف مراد هوفمان، تعريب عادل المعلم، ويس إبراهيم، القاهرة، ١٤٢١هـ.
٦. الإسلام والعلم، للأستاذ توفيق الطيب، منشور بمجلة حضارة الإسلام بدمشق، عدد شوال ١٣٨٥هـ.
٧. إعادة كتابة العلوم من وجهة نظر إسلامية، بحث للدكتور زغلول النجار قدمه لمؤتمر التضامن الإسلامي في مجالات العلوم والتكنولوجيا، الرياض ١٣٩٥هـ، منشور في وقائع المؤتمر وفي مجلة المجتمع الكويتية.
٨. إعلام الموقعين عن رب العالمين، لابن قيم الجوزية، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة التجارية الكبرى، ١٣٧٤هـ.
٩. تأملات في سلوك الإنسان، د. إلكسيس كاريل، ترجمة محمد القاص، مكتبة مصر بالقاهرة.
١٠. تأملات في وسائل الإدراك، د. عبد ا محمد الشرقاوي، دار عالم الكتب بالقاهرة والرياض، ١٩٧٥م.
١١. تجديد التفكير الديني في الإسلام، تأليف محمد إقبال، ترجمة عباس محمود، مطبعة لجنة التأليف بالقاهرة، ١٩٦٨م.
١٢. ترتيب القاموس المحيط، للطاهر أحمد الزاوي، مطبعة عيسى البابي الحلبي بمصر، ١٣٧٥هـ
١٣. التعريفات للشريف الجرجاني، مطبعة مصطفى البابي الحلبي بمصر، ١٣٧٥هـ.
١٤. تفسير الطبري، للإمام أبي جعفر الطبري، طبعة الحلبي، وطبعة دار المعارف بتحقيق محمود محمد شاكر، ١٤٠٨هـ.
١٥. تفصيل النشأتين وتحصيل السعادتين، للراغب الأصفهاني، تحقيق د. عبد المجيد النجار، دار الغرب الإسلامي، ١٤٢٠ هـ.
١٦. تمهيد الأوائل وتلخيص الدلائل للقاضي أبي بكر الطيب الباقلاني، تحقيق عماد الدين حيدر، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، ١٤٠٧هـ.
١٧. تهافت العلمانية، د. عماد الدين خليل، مؤسسة الرسالة في بيروت، ١٩٧٨م.
١٨. الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، لشيخ الإسلام ابن تيمية، مطبعة المدني بالقاهرة، ١٣٩٥هـ.
١٩. الحجة في بيان المحجة، للإمام الحافظ قوام السنة الأصفهاني، تحقيق محمد أبو رحيم، الطبعة الأولى، دار الراية بالرياض.

٢٠. الحقيقة في نظر الغزالي، د. سليمان دنيا، دار المعارف بمصر، القاهرة، ١٩٧٤م.
٢١. خصائص التصور الإسلامي، للأستاذ سيد قطب، دار الشروق بالقاهرة، ١٣٩٥هـ.
٢٢. درء تعارض العقل والنقل، لشيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق رشاد سالم، مطبعة جامعة الإمام بالرياض١٤٠٣هـ.
٢٣. الدين: بحوث ممهدة لدراسة تاريخ الأديان، للدكتور محمد عبد ا دراز، دار القلم بالكويت، ١٩٨٢م.
٢٤. الذريعة إلى مكارم الشريعة، للراغب الأصفهاني، طبعة دار الكتب العربية بمصر، ١٣٨٥هـ.
٢٥. سنن الترمذي مع شرحه: تحفة الأحوذي، للمباركفوري، مؤسسة قرطبة بالقاهرة، ١٤٠٦هـ.
٢٦. سـير أعلام النبلاء، للإمام الذهبي، تحقيق مجموعة بإشراف شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٠٢هـ.
٢٧. شرح العقائد النسفية، مع الحواشي والتقريرات للسعد التفتازاني،، طبعة استانبول.
٢٨. شرح المقاصد للعلامة السعد التفتازاني، تحقيق د. عبد الرحمن عميرة، عالم الكتب، ١٤١٩ هـ.
٢٩. شرح المواقف للقاضي عضد الدين الإيجي، تأليف الشريف الجرجاني، ومعه حاشيتا السيالكوتي والجلبي، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٩هـ.
٣٠. صحيح الجامع الصغير، للشيخ محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي بدمشق، ١٤٠٦هـ.
٣١. عقيدة المسلم للشيخ محمد الغزالي، دائرة الشؤون الإسلامية بدولة قطر، ١٤١٢هـ.
٣٢. العلم يدعو للإيمان، تأليف كريسي موريسون، ترجمة محمود باشا الفلكي، مكتبة النهضة المصرية بالقاهرة، ١٩٦٥م.
٣٣. العلمانية: نشأتها وتطورها، د. سفر الحوالي، مركز البحث العلمي بجامعة أم القرى بمكة المكرمة١٤٠٢هـ.
٣٤. العلوم والتقنية، مجلة علمية فصلية تصدرها مدينة الملك عبد العزيز للعلوم والتقنية، الرياض، العدد السادس والخمسون، شوال ١٤٢١هـ/ يناير ٢٠٠١م.
٣٥. عون المعبود شرح سنن أبي داود، للشيخ محمد عبد الرحمن المباركفوري، نشر المكتبة السلفية بالمدينة المنورة، ١٣٨٨هـ.
٣٦. الفروق اللغوية، لأبي هلال العسكري، عني به حسام القدسي، تصوير دار الآفاق عن طبعة مكتبة القدسي بالقاهرة.
٣٧. الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي، د. محمد البهي، مكتبة وهبة بالقاهرة، ١٩٧٥م.
٣٨. فلسفة العلوم، د. بدوي عبد الفتاح محمد، دار قباء للنشر والتوزيع بالقاهرة، الطبعة الثانية، ٢٠٠١م.
٣٩. كشاف اصطلاحات الفنون للتهانوي، مكتبة النهضة المصرية بالقاهرة، ١٩٧٦م.
٤٠. الكليات، لأبي البقاء الكفوي، تحقيق مصطفى درويش، طبعة وزارة الثقافة بدمشق.
٤١. كيف ندعو الناس، للأستاذ محمد قطب، دار الشروق بالقاهرة، ١٤٢٢هـ.
٤٢. الكيمياء العامة وغير العضوية، تأليف ب. ج. ديرانت، ترجمة د. سامي طوبيا وآخرين، ومراجعة: د. رشاد رزوق، منشور ضمن مجموعة الكتب التي يشرف على إعدادها المجلس الأعلى للعلوم بالقاهرة.
٤٣. الكيمياء العامة، تأليف فريدريك لونجو، ترجمة مروان كمال وآخرين، مراجعة د. إسحاق الفرحان، منشورات مجمع اللغة العربية الأردني، ١٤٠١هـ.
٤٤. ا والكون، د. محمد جمال الدين الفندي، الهيئة المصرية العامة للكتاب بالقاهرة، ١٩٧٨م.

٤٥. مجموع الفتاوى لشيخ الإسلام ابن تيمية، جمع محمد بن قاسم النجدي، طبعة المغرب، ١٤٢٠هـ.
٤٦. مداخـل إلى العقيدة الإسلامية، د. يحيى هاشم فرغل، الطبعة الأولى، القاهرة ١٩٨٥م.
٤٧. المدخل إلى الثقافة الإسلامية، د. محمد رشاد سالم، دار القلم بالكويت، ١٤١٠هـ.
٤٨. مدخل لدراسة العقيدة الإسلامية، د. عثمان جمعة ضميرية، مكتبة السوادي، ١٤٢٥هـ.
٤٩. مذاهب فكرية معاصرة، للأستاذ محمد قطب، دار الشروق بالقاهرة، ١٩٨٠م.
٥٠. مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح»للملا علي بن سلطان القاري، المكتبة الإمدادية في ملتان بالباكستان، ١٤٠٨هـ.
٥١. المستصفى من علم أصول الفقه، للإمام أبي حامد الغزالي، ومعه فواتح الرحموت لابن عبد الشكور، تصوير مكتبة دار صادر، بيروت، ١٣٩٦هـ.
٥٢. المستقبل لهذا الدين، للأستاذ سيد قطب، منشورات الاتحاد العالمي للمنظمات الطلابية، ١٤٠٢هـ.
٥٣. المسند للإمام أحمد بن محمد بن حنبل، المكتب الإسلامي بدمشق، ١٤٠٥هـ.
٥٤. المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، للمقري الفيومي، تحقيق د. عبد العظيم الشناوي، دار المعرف بمصر، ١٩٧٧م.
٥٥. معالم تاريخ الإنسانية، تأليف هـ. ج. ويلز، ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد، الهيئة المصرية العام للكتاب بالقاهرة، ١٩٩٤م.
٥٦. المعجم الفلسفي، جميل صليبا، دار الكتاب اللبناني، الطبعة الأولى، بيروت، ١٩٧ ١م.
٥٧. المعجم الوسيط، لمجموعة من العلماء، إصدار مجمع اللغة العربية بالقاهرة، ١٣٩٤هـ.
٥٨. معجم مقاييس اللغة لابن فارس، تحقيق عبد السلام هارون، مكتبة الحلبي بمصر، ١٩٧٤م.
٥٩. مفردات القرآن للراغب الأصفهاني، تحقيق سيد كيلاني، مكتبة الحلبي بالقاهرة، ١٩٦٨م.
٦٠. المقاصد العامة للشريعة الإسلامية، د. حامد يوسف العالم، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ١٤٠٥هـ.
٦١. مقال عن المنهج، تأليف رينيه ديكارت، ترجمة محمود محمد الخضيري، المطبعة السلفية بالقاهرة، ١٣٤٩هـ.
٦٢. مقدمات المناهج للأستاذ أنور الجندي، دار الاعتصام بالقاهرة، ١٣٩٤هـ.
٦٣. مقدمة ابن خلدون، للعلامة ابن خلدون، دار الكتاب اللبناني، بيروت. ١٩٧٤م.
٦٤. من قضايا الفكر الإسلامي، محمد قطب، الطبعة الأولى، دار الشروق بالقاهرة، ١٤٢٣هـ.
٦٥. مناهج البحث العلمي، د. طلعت همام، مؤسسة الرسالة في بيروت، ودار عمار بالأردن، الطبعة الثالثة، ١٤٠٩هـ.
٦٦. منهج البحث عند مفكري الإسلام واكتشاف المنهج العلمي في العالم الإسلامي، د. علي سامي النشار، دار المعارف بالقاهرة، ١٩٧٤م.
٦٧. منهج التربية الإسلامية، للأستاذ محمد قطب، دار الشروق بالقاهرة، ١٣٩٨هـ.
٦٨. منهج المدرسة العقلية في التفسير، د. فهد عبد الرحمن الرومي، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى.
٦٩. الموافقات في أصول الشريعة، للإمام الشاطبي، تحقيق الشيخ عبد ا دراز، مصور عن طبعة المكتبة التجارية بالقاهرة.
٧٠. الموسوعة العربية الميسرة، بإشراف شفيق غربال، دار الجيل في لبنان والجمعية المصرية لنشر الثقافة والعلم، القاهرة، ١٤١٦هـ.

٧١. موسوعة المورد، تأليف منير البعلبكي، دار العلم للملايين، الطبعة الثانية، بيروت ١٩٩١م.
٧٢. موقف الإسلام من العلم، د. محمد معروف الدواليبي، دار الشواف بالرياض، بدون تاريخ.
٧٣. موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين وعباده المرسلين، للشيخ مصطفى صبري، دار إحياء التراث العربي، ١٩٦٨م.
٧٤. ميزان الأصول في نتائج العقول، للعلاء السمرقندي، تحقيق محمد زكي عبد البر، مطابع الدوحة الحديثة بدولة قطر، ١٤٠٤هـ.
٧٥. نشأة الدين، د. علي سامي النشار، مكتبة الخانجي بمصر، ١٩٧٨م.
٧٦. النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير الجزري، تحقيق محمود الطناحي، المكتبة الإسلامية في بيروت، ١٩٧٨م.
